ملخص البحث :

قد حشد علماء المسلمين طاقتهم من أجل دراسة القران الكريم ،وتدبره، واستخراج معانيه،والبحث فى اسراره، وصبروا فى ذلك ما لم يصبروا على غيره، فسيطرت الروح الحذرة عليهم وهم يدرسونه خشية الوقوع فى المحظور، لأن القران هو دين الله – عز وجل –وحلاله وحرامه، فراجعوا علومهم وفروعها ودققوا فى المراجعة.

وقد حاول هذا البحث فى حذر ووجل استجلاء سر من أسرار صياغة القرآن للمعانى وطريقة بنائه لها، وبيان بلاغة نظمه ، ودقة نسقه وثراء دلالاته ،والنظر فى التركيب المتوازى بين جمله ،ويعنى توافق جملتين أو أكثر فى بناء الكلام وتركيبه وصياغته من حيث الصرف والنحو ،وفيه قد تتفق الألفاظ بالتكرار والإيقاع والصوت ودراسة أثر هذا التوافق على الدلالة والمعنى.

وقد أشار العلماء قديما إلى شيء من ذلك أثناء حديثهم عن السجع وأقسامه، فجعلوا من أقسامه

السجع المتوازي: وهو توافق الفاصلتين وزنا وتقفيه دون رعاية لشيء آخر كان في السجع المطرف والمرصع مثل قوله تعالى في سورة الغاشية " فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة" آية رقم ١٣و١٤

والدراسة هنا لا تكتفي بهذا –يعني توافق الفاصلتين وزنا وتقفية– بل تراعي كما قلت – التوافق النحوي والصرفي المصحوب بالتكرار أحيانا، والتوافق الإيقاعي والصوتي إلى آخر ما حاول البحث تلمُّسه في نسق الجمل المتتالية في النظم القرآني وتركيبه، بعد فقه لغته وأسلوبه ولمح إشارات كلماته.

الكلمات المفتاحيه :

الأعمال – النيات – بني –الإسلام – يجمع –خلقه .

Abstract:
Muslim scholars have mobilized their energy to study the Holy Qur'an, ponder It, extract Its meanings, and research Its secrets; and they have been patient in that as they have not been patient in anything else. So, a cautious spirit took control of them as they studied It for fear of committing mistakes, because the Qur'an is the religion of Allah - the Almighty - and what is permissible and what is forbidden, so they reviewed their sciences and their branches carefully.

This research paper has carefully and diligently attempted to clarify one of the secrets of the Qur'an's formulation of the meanings and the way It constructs them; to explain the eloquence of Its structure, the accuracy of Its format and the richness of Its meanings; and to look at the parallel structure between Its sentences, which means the agreement of two or more sentences in the construction, composition, and formulation of speech in terms of morphology and grammar, in which words may agree in repetition, rhythm, and sound. Additionally, the effect of this agreement on the connotations and the denotations is studied.

Scholars in the past referred to something of this while talking about Saj' and its types; so they made one of its categories: Parallel Saj': It is the compatibility of the two commas in meter and rhyme without care for anything else. It is found in the irregular and studded Saj', such as the Almighty's saying in Surat Al-Ghāshīyah, "In it there are beds raised and cups placed" (verses ١٣ and ١٤).

The study here is not satisfied with this - meaning the compatibility of the two commas in meter and rhyme - but rather takes into account, as I said - the grammatical and morphological compatibility accompanied by repetition sometimes, and the rhythmic and phonetic compatibility, etc., which the research tried to detect in the arrangement of successive sentences in the Qur'anic structures and Its syntax, after recognizing Its language and style; and catching the hints of Its words.

Key Words: Actions , Intentions , Structured , Islam , Brings together , Its creation.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد النبى الأمى الأمين،وعلى آله وصحبه أجمعين،ومن تمسك بسنته ونهج منهجه إلى يوم الدين.

أما بعد...

فإن القرآن الكريم هو النور المبين الذى يهدى البشرية إلى الله رب العالمين ويربط قلوب الناس بشرعه وهداه وحبله المتين،ويرسم لهم المنهج الراشد فى العقيدة والشريعة والمعاملات والأخلاق وما فيه سعادة الخلق أجمعين،ويظل هكذا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فى يوم الدين.

وكتاب هكذا شأنه فيه من الأسرار والدلالات التي لا تنقضي ، ولا تنفضُّ ، ولهذا فإن ما استنبطه العلماء من علوم وأصول من هذا الكتاب العظيم أضاءوا به طريق العقل الراشد ليس إلا قطرة من بحر ترامت شواطئه وبَعُدَ غوره وقعره.

و" لو أعطى العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم تبلغ نهاية ما أودعه الله فى آية من كتابه،لأنه كلام الله وكلامه صنعته،وكما أنه ليس لله نهاية فكذلك لانهاية لفهم كلامه،وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله عليه" (١) .

وقد حشد علماء المسلمين طاقتهم من أجل دراسة هذا الكتاب الكريم،وتدبره واستخراج معانيه، والبحث في أسراره ،وصبروا في ذلك كله ما لم يصبروا على غيره،فسيطرت الروح الحذرة عليهم وهم يدرسونه خشية الوقوع في المحظور لأن ما في القرآن الكريم هو دين الله–عز وجل– وحلاله وحرامه،فراجعوا علومهم وفروعها،ودققوا في المراجعة،ومن ثَمَّ كان أفضل المناهج وأصحها ما اتصل بالقرآن الكريم.

ولا يقل حال البلاغي الذى يدرس النص القرآنى ويتناوله عن حال العلماء والباحثين من حذر وتدقيق وهم يتناولون النص الكريم بالدراسة من جهات عدة، "وموقفه – يعني البلاغي –أمام ألفاظ القرآن وصوره وإن شابه موقفه أمام ألفاظ الشعر وتراكيبه وصوره، إلّا أنّ ثمّة اختلافاً

---

(١) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ٩/١ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم– مكتبة التراث بالقاهرة .

لا يجوز إهمالُه ؛ لأنّه مع القرآن يستنبط شرعًا وأحكامًا وأسرارًا وإعجازًا، ومع الشعر يستنبط صنعة فقط ، ومن ثم كان الحذر والتدقيق" (٢).

وكنت قد قرأت من قبل دراسة نحوية عن التماثل، والتوازن، والتوازى فى تركيب القرآن الكريم وبنائه، فوقع فى نفسى من وقتها أننا نحن– البلاغيين– أحق بهذه الدراسات وأجدر؛ لأنّ فى البلاغة ستدرس هذه الظواهر بالتفسير والتحليل والشرح، وإبراز محاسنها وثراء دلالات خصوصياتها، وهذا لا يكون فى دراستها فى النحو التى ستكتفى بإبراز التماثل – مثلا – فى أركان الجمل المتتابعة ، وتشابهها فى النسق النحوى دون التعرض لأثر ذلك في أداء المعنى.

وقد حاولت فى حذر ووجل استجلاء سرٍّ من أسرار صياغة القرآن الكريم للمعانى وطريقة بنائه لها ،وهو دقة النسق أي ما جاء من الكلام علي نظام واحد ، وأخص منه التركيب المتوازى ، وأعنى به توافق جملتين أو أكثر فى بناء الكلام وتركيبه وصياغته ، من حيث الصرف والنحو،وفيه قد تتفق الألفاظ بالتكرار والإيقاع والصوت ...وغير ذلك مما نعرفه – إن شاء الله – من خلال تلك الداسة .

وقد أشار العلماء قديما إلى شيء من ذلك أثناء حديثهم عن السجع،وأقسامه،فجعلوا من أقسامه السجع المتوازى وهو توافق الفاصلتين وزنا وتقفية ،دون رعاية لشيء آخر كان فى السجع المطرف والمرصع، مثل قوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ (٣) (الغاشية: ١٣،١٤) .

والدراسة هنا لا تكتفى بهذا –أعني توافق الفاصلتين وزنا وتقفية – بل تراعى– كما قلت – التوافق النحوى والصرفى المصحوب بالتكرار أحيانا ، والتوافق الإيقاعى والصوتى...إلى آخر ما نحاول تلمسه فى نسق الجمل المتتالية فى النظم القرآنى وتركيبه.

ولن نستطيع أن نفعل شيئا من هذا إلا بفقه لغة ذلك الكتاب وأسلوبه ، ولمح إشارات كلماته.

ولهذا عنيت هذه الدراسة بشرح المفردات القرآنية،ومعانيها اللغوية وأصولها الاشتقاقية ، ومكانتها فى السياق،ودورها فى أداء المراد،وعلاقة الآيات محل الشاهد بما قبلها.

---

(٢) من أسرار التعبير القرآنى.د/محمد أبو موسى ص ٦ .

(٣) انظر الإيضاح ١٠٧/٤ الخطيب القزويني ، تحقيق د/ محمد عبد المنعم خفاجي ط المكتبة الأزهرية للتراث ١٩٩٣م .ط ثالثة .

وقد اقتضت خطة الدراسة أن تكون فى مقدمة،وتمهيد،وثلاثة فصول،وخاتمة أما التمهيد فكان بيانا لمفهوم التركيب والتوازى فى اللغة وعند النقاد والبلاغيين ، وأما الفصول الثلاثة فكانت:

الفصل الأول بعنوان:التركيب المتوازى فى إسناد الجملة الإسمية.

والفصل الثانى بعنوان :التركيب المتوازى فى إسناد الجملة الفعلية.

والفصل الثالث بعنوان :التركيب المتوازى فى إسناد الأساليب المختلفة.

وأما الخاتمة فكانت لأهم النتائج التى توصلت إليها الدراسة.

وبعد ، فهذه محاولة متواضعة من عبد افتقاره إلى ربه شديد، قد حاول فيها استجلاء سرًّ من أسرار التعبير القرآنى وبيان طريقة من طرق صياغته للفظ والمعنى، لعله بذلك يفتح باباً عظيما للاجتهاد والنظر فى أنساق القرآن الكريم وتراكيبه العجيبة التى ما زالت تحتاج إلى جهد جهيد، وصبر جميل فى سبر غورها، وبيان أسرارها، فإنْ كان قد وُفّقَ فى ذلك فالفضل كله لربه،وإن كانت الأخرى فطمعه فى رحمة ربه كثير، مستغفراً ربّه مما جرى به قلمُه بلفظ لا يليق، أو بذكر معنىً على غير مراده – سبحانه– ،إنه نعم المولى ونعم النصير.

أ.د/أحمد منصور خلف الله

تمهيد

معنى التركيب والتوازى فى اللغة:

ركّب الشيء :وضع بعضه على بعض،وقد تركَّب، وتراكب ،والمتراكب من القافية:كل قافية توالت فيها ثلاثة أحرف متحركة بين ساكنين ، وهى مُفاعَلَتُنْ،ومُفْتَعِلُنْ وفَعِلُنْ [٤] وتركّب الشيء : تألف وتكون.[٥]

ووَزَى الشيء يَزِى:اجتمع وتَقَبَّض، ويقال:أوزيت ظهرى إلى الشيء :أسندته، ويقال:أوزيته:أشخصته ونصبته،وفى حديث صلاة الخوف:فَوَازَيْنا العَدّوَ وصَافَفْناهُم ، والموازاة:المقابلة والمواجهة،وفى التهذيب:الأصل فيه الهمزة،يقال آزيته إذا حاذيته،قال الجوهرى:ولا تقل وازيته،وغيره أجازه على تخفيف الهمزة وقلبها،قال وهذا إنما يصح إذا انفتحت وانضم ما قبلها نحو جُؤَنٍ وسُؤَالٍ،فيصح فى الموازاة ولا يصح فى وازينا إلا أن تكون قبلها ضمة من كلمة أخرى [٦] ، وتوازى الشيئان:حاذى أحدهما الآخر ، ووازاه.[٧]

معنى التركيب والتوازى عند النقاد والبلاغيين:

جاء لفظ " التركيب " فيما كتب النقاد والبلاغيون،وهم يعنون به الجمل التى تركبت من ألفاظ وأفادت معنى تاماً،وذلك أثناء حديثهم عن خصائص تلك الجمل،ودلالاتها.

أما التوازى فقد ذكره كثير من النقاد والبلاغيين قديماً،ومن ذلك ما جاء فى حديث قدامة بن جعفرعن أحسن البلاغة،حيث قال:"وأحسن البلاغة:الترصيع ، والسجع ، واتساق البناء ،واعتدال الوزن،واشتقاق لفظ من لفظ ، وعكس ما نظم من بناء ، وتلخيص العبارة بألفاظ مستعارة ، وإيراد الأقسام موفورة بالتمام،وتصحيح المقابلة بمعانٍ متعادلة،وصحة التقسيم باتفاق النظوم،وتلخيص الأوصاف بنفى الخلاف،والمبالغة فى الرصف بتكرير الوصف،وتكافؤ المعانى فى المقابلة،والتوازى،وإرداف اللواحق وتمثيل المعانى" [٨] .

---

(٤) انظر اللسان مادة "ركب" .

(٥) المعجم الوجيز مادة "ركب " .

(٦) اللسان مادة " وزى ".

(٧) المعجم الوجيز مادة " وازى " .

(٨) جواهر الألفاظ لقدامة بن جعفر ص٣ .

لم يحدد قدامة مفهوم التوازى،ومراده منه فى هذا النص الذى تحدث فيه عن الشروط التى يجب توافرها فى الألفاظ والمعانى حتى تتحقق أحسن البلاغة وأفضلها،وإن كان له فضل السبق فى التنويه إليه،وجعله صفة من صفات الألفاظ وهيئاتها التى تصاغ فيها المعانى المتكافئة، وهو بهذا قد فتح الطريق أمام من جاء بعده من العلماء لدراسته،والنظر فيه.

وقد اعتمد قدامة فى فهمه لهذا اللون أو المصطلح على المعنى اللغوى له،أى:المواجهة والمقابلة،فقال فى حديثه عن شروط صحة المقابلة:(فيؤتى فى الموافقة بالموافقة،وفى المضادة بالمضادة،كقوله :"أهل الرأى والنصح،لا يساويهم ذوو الأَفْنِ والغش وليس مَنْ جمع إلى الكفاية الأمانة،كمن جمع إلى العجز الخيانة"،وإذا تؤملت هذه المقابلات وجدت فى غاية المعادلة:لأنه جعل بإزاء الرأى الأَفْن، وبإزاء النصح الغش وفى مقابلة الكفاية العجز،وفى مقابلة الأمانة الخيانة)[٩].

أما أبو هلال العسكرى فقد فهم التوازى بمفهومين،المفهوم الأول اللغوى وهو"المواجهة والمقابلة"، وهذا واضح فى حديثه عن المقابلة (وقول الآخر:

أَسَرْناهم وَأَنْعَمْنَا عليهم وأسْقَيْنا دماءَهُمُ التُّرَابا

فمَا صبروا لبَأْسٍ عندهم وَلاَ أدّوا لحسْنِ يدٍ ثوابا

فجعل بإزاء الحرب إن لم يصبروا،وبإزاء النعمة إن لم يثبتوا فقابل على وجه المخالفة)[١٠] .

أما المفهوم الثانى للتوازى والمنطلق – أيضا – من المعنى اللغوى له فكونه جزءا من السجع إلا أنه هنا حاول أن يتوسع فى هذا المفهوم ، فجعل التوازى مرادفاً للتعادل ، يقول:" والسجع على وجوه ... فمنها أن يكون الجزآن متوازيين متعادلين لا يزيد أحدهما على الآخر مع اتفاق الفواصل على حرف بعينه[١١]، وفسر معنى التعادل بالتساوى فى قوله:"فهذه الأجزاء متساوية لا زيادة فيها ولا نقصان،والفواصل على حرف واحد..." [١٢] ، ثم استعمل التوازى بدلا من التساوى للدلالة على نفس المعنى،فقال:"فهذه الفواصل متوازية لا زيادة فى بعض

---

(٩) السابق ص٥.

(١٠) الصناعتين–العسكرى ص ٣٧٣ تحقيق د/ مفيد قميحة ط دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٤ .

(١١) (٣)انفسه ص ٢٨٧ .

(١٢) نفسه ص ٢٨٧ .

أجزائها على بعض،بلى فى القليل منها، وقليل ذلك مغتفر" [١٣]، وأيضا قال:"وإن أمكن أيضا أن تكون الأجزاء متوازية كان أجمل وإن لم يكن ذلك فينبغى أن يكون الجزء الأخير أطول" ، فسوّى– كما ترى– بين التوازى والتعادل، والتساوى فى الدلالة.

وتبع ابن الأثير أبا هلال العسكرى فى هذا المفهوم فسوّى بين التوازى والتساوى فى الدلالة، يقول:(فممَّا جاء من هذا النوع منثوراً قول الحريرى فى مقاماته:"فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه،ويقرع الأسماع بزواجر وعظه"،فإنه جعل ألفاظ الفصل الأول مساوية لألفاظ الفصل الثانى،وزنا وتقفية،فجعل "يطبع"بإزاء "يقرع"،و"الأسجاع" بإزاء "الأسماع" و "جوهر" بإزاء"زواجر"و"لفظه" بإزاء "وعظه".

إلا أن ابن الأثير اختلف عن العسكرى بأن جعل التوازى جزءاً من الترصيع فقال :" وهو أن تكون كل لفظة من ألفاظ الفصل الأول مساوية لكل لفظة من ألفاظ الفصل الثانى فى الوزن والقافية" .

أما العسكرى،فقد أخرج القرينتين الأخيرتين من الترصيع،واقتصر على حشو البيت، يقول فى الترصيع"وهو أن يكون حشو البيت مسجوعاً" .

وأما الخطيب القزوينى فقد تحدث عن السجع فى كتابه الإيضاح، بقوله:"وهو تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد، وهذا معنى قول السكاكى:الأسجاع فى النثر كالقوافى فى الشعر".

وهو يقصد بذلك أن تتوافق الكلمتان اللتان هما آخر الفقرتين فى النثر،فى كونهما على حرف واحد كائن فى آخرهما.

ثم قسم السجع إلى ثلاثة أقسام:مطرف،ومتوازٍ،وترصيع،لأن الفاصلتين إن اختلفتا فى الوزن فهو السجع المطرف كقوله تعالى:﴿ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾ (نوح ١٣:١٤) .

وإن لم تختلف الفاصلتان فى الوزن وكان ما فى إحدى القرينتين من الألفاظ أو أكثر ما فيها مثل ما يقابله من الأخرى فى الوزن والتقفية فهو الترصيع، كقول الحريرى:"فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه،ويقرع الأسجاع بزواجر وعظه" ، وكقول أبى الفضل الهمذانى: "إن

---

(١٣) نفسه ص ٢٨٧ .

بعد الكدر صفواً،وبعد المطر صحواً" وقول أبو الفتح البستى:"ليكن إقدامك توكلاً،وإحجامك تأملا" .

وإن لم يكن جميع ما فى القرينة ولا أكثرها فيها مثل ما يقابله من الأخرى فهو السجع المتوازى،أى توافق الفاصلتين وزنا وتقفية دون رعاية غيرها،مثل قوله تعالى:﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾(الغاشية ١٣:١٤) ، ودعاء النبى(ﷺ):"اللهم إنى أدرأ بك فى نحورهم، وأعوذ بك من شرورهم.[١٤]

إذن فالتوازى كان عند الخطيب نوعا من أنواع السجع،وتابعه فى ذلك كثير من العلماء كالطيبى[١٥]،والعلوى[١٦]،وابن قيم الجوزية[١٧]،والسيوطى[١٨].

وقد ورد السجع عند النويرى على أربعة أقسام بزيادة قسم إلى ما ذكره الخطيب وهو السجع المتوازن،وعرفه بقوله:"فهو أن يراعى فى الكلمتين الأخيرتين من القرينتين الوزن مع اختلاف الحرف الأخير منهما،كقوله تعالى﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [١٩] (الغاشية:١٥:١٦).

وورد أيضا عند الأسيوطى بزيادة قسم آخر وهو المتماثل، يقول "قسَّم البديعيون السجع،ومثله الفواصل إلى أقسام:مطرف،ومتوازٍ، ومرصع، ومتوازن ومتماثل ....، والمتماثل أن يتساويا ، (أى الفاصلتان)فى الوزن دون التقفية،وتكون أفراد الأولى مقابلة لما فى الثانية،فهو بالنسبة إلى المرصع كالمتوازن بالنسبة إلى المتوازى نحو﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الصافات:١١٧:١١٨) ، فالكتاب والصراط يتوازنان ، وكذا المستبين ، والمستقيم ، واختلفا في الحرف الأخير" [٢٠] .

إذن فالتوازى جاء فى الكلام السابق للسادة العلماء وصفا للألفاظ المركبة وأنه عبارة عن اتفاق الفاصلتين الأخيرتين فى الوزن والتقفية ، وقد اتفقوا فى ذلك ، إلا أنهم اختلفوا فيما عدا الفاصلتين من كلام،فمنهم من عدّه ترصيعاً،ومنهم من عدّه توازياً.

---

(١٤) الإيضاح٤/١٠٨ .

(١٥) التبيان فى البيان ص(٤٢٠)

(١٦) الطراز ج٣ ص ١٨

(١٧) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلمه البيان(٢٢٦-٢٢٩)،

(١٨) معترك الأقران(٣٩)والإتقان فى علوم القرآن ص(٤٤٨)

(١٩) نهاية الإرب فى فنون الأدب ص(١٠٥) المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة .

(٢٠) الإتقان فى علوم القرآن ص(٤٤٨) دار مصر للطباعة.

وكانت نظرة الكفوى صاحب معجم الكليات فى المصطلحات والفروق اللغوية للتوازى مختلفة،فلم يجعله قسما من أقسام السجع،وإنما عرفه بأنه اتفاق الشيئين فى الخاصة،وفى الكيفية ، وفى الكمية وفى النوعية،وذلك فى قوله:" المشاكلة : هى اتفاق الشيئين فى الخاصة،كما أن المشابهة اتفاقهما فى الكيفية،والمساواة اتفاقهما فى الكمية، والمماثلة اتفاقهما فى النوعية... والموازاة اتفاقهما فى جميع المذكورات"(٢١) .

أما التوازى فى الدراسات الحديثة فقد شهد تطوراً فى المفهوم واتساعاً فى الدلالة،حتى أصبحت القافية،والسجع جزءاً من معناه،لا كل معناه،كما فى التعريفات السابقة،فعدّه بعضهم صفة من صفات إيقاع الكلام بأن تتعادل فقراته وجمله من حيث الإيقاع والوزن ،ويستمر الكلام هكذا فى النص كله،كالذى نجده فى القصيدة الشعرية حيث يتكرر إيقاع كل شطر منها فى كل بيت ويستمر حتى نهايتها،ونظر بعضهم إليه باعتباره تكراراً لكنه تكرار غير كامل وتوسع بعضهم فيه حتى جعله يشمل مستويات عدة،أو صفات عدة فى بناء الكلم،منها الصوتى،والنحوى ،والبلاغى،والمعجمى(٢٢).

وقيمة هذا اللون من الكلام ،أو تلك الطريقة فى بناء الألفاظ،لا تظهر جلية إلا من خلال السياق الموجودة فيه،وأن يُعْمَد بها إلى وجه آخر من التركيب والترتيب حتى تظهر مزية تلك الهيئة التى جاءت فيها الألفاظ،وهذا ما أشار إليه الإمام عبد القاهر الجرجانى بقوله:"والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف ،ويُعْمَد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب،فلو أنك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فَعَدَّدت كلماته عدًّا كيف جاء واتفق،وأبطلت نضده ونظامه الذى عليه بنى،وفيه أفرغ المعنى وأجرى،وغيرت ترتيبه الذى بخصوصيته أفاد ما أفاد،وبنسقه المخصوص أبان المراد...أخرجته من كمال البيان إلى محال الهذيان"(٢٣) .

ونمط الكلام ونسقه يشترك فى تكوينه،وتصويره أشياء كثيرة،كالوزن الصرفى،والتركيب النحوى،والإيقاع الصوتى،والدلالة المعجمية للألفاظ المتجاورة، والتماثل بينها،أو التشابه،أو التضاد،وغير ذلك من عناصر تنهض عليها صورة الكلام وهيئته،وهو يعبر عن المراد.

---

(٢١) الكليات لأبى البقاء الكفوى ص٨٤٣ مؤسسة الرسالة–بيروت ط ثانية ١٩٩٨م

(٢٢) انظر فى ذلك الفاصلة فى القرآن –محمد الحسناوى .ص٢٣٣ وما بعدها المكتب الإسلامى–بيوت ط ثانية١٩٦٨م، وينظر الأسس الجمالية فى النقد لعربى.د/عز الدين إسماعيل ص٢٢١ وما بعدها.

(٢٣) أسرار البلاغة ص٣ .

ومن ثم لا يمكن أن تكون بنيّة التوازى بين الجمل بنية شكلية فقط،إذ إنها بنية ترتبط بالمعنى والدلالة ارتباطاً وثيقاً.

وبناء على ما تقدم يمكن أن نُعَرِّف التركيب المتوازى بأنه :توافق جملتين أو أكثر فى الكلام من حيث الوزن الصرفى،والتركيب النحوى،المصاحب بتكرار الألفاظ،أو الحروف،أو الإيقاع الصوتى... " .

هذا وقد يشتمل التركيب المتوازى على ألوان من البلاغة كالجمع أو التفريق،أو التقسيم،أو الإيضاح بعد الإبهام،أو ذكر الخاص بعد العام ،وغيرها من ألوان فيظن أنه أحد هذه الألوان ،وهو فى الحقيقة ليس كذلك لأن تلك الألوان ناظرة فى مجملها إلى المعنى بوجه من الوجوه،وهذا ناظر إلى توافق الجمل المتتابعة فى الصياغة والتركيب والترتيب،فيلاحظ فيه كل ما يتصل بالمعنى واللفظ من نحو وصرف وبلاغة ودلالة معجمية وصوتية للألفاظ... إلى آخر ما يكون فى هيئة الكلام وصورته ومضمونه.

الفصل الأول

التركيب المتوازى فى إسناد الجملة الإسمية

من المعلوم أن اللغة- أية لغة - عبارة عن أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم،ومرادهم،ولا نستطيع أن ندرك من اللغة غرضاً،ولا أن نفيد منها مراداً،أو معنى ،إلا بترابط مفرداتها،وضم كلماتها بعضها إلى بعض،وصياغتها فى تراكيب مفيدة ،وصارت كل لفظة متصلة بالأخرى نوعاً من الاتصال،هذا الترابط وتلك الصياغة، وذاك الضم والاتصال والتلاحم،هو ما أطلق عليه البلاغيون اسم الإسناد،وعرفوه بقولهم:"هو ضم كلمة إلى كلمة أخرى على وجه يفيد أن مفهوم إحداهما ثابت لمفهوم الأخرى أو منفى عنه" مثل:محمد ناجح،وما ذاكر المهمل،فقد أثبت النجاح لمحمد ، فـ "ناجح"مثبت،أو مسند و"محمد"مثبت له،أو مسند إليه، وكذلك فى المثال الثانى :أسندت كلمة "ذاكر"إلى "المهمل " على وجه يفيد أن المذاكرة منفية عن المهمل ،يقول الإمام عبد القاهر "ومختصر كل أمر أنه لا يكون كلام من جزء واحد، وأنه لابد من مسند إليه، ومسند" .

ولما كانت الجملة العربية تقوم على ركنين أساسين هما:المسند إليه،والمسند،كان لهذين الركنين التأثير الأظهر،والأوضح فى طبيعة التركيب المتوازى فى الجملة التى تنقسم- بحسب نوع هذين الركنين ، وترتيبهما - إلى جملة إسمية ، وجملة فعلية،وسنبدأ بالحديث عن التركيب المتوازى فى الجملة الإسمية بأنواعها المختلفة فى القرآن الكريم:

١-جملة إسمية ، فيها المسند إليه والمسند مفردان:

مثل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْأِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (المائدة:٥) .

الحَلالُ،والحِلُّ:المباح، وأحلّ:أباح، والطيبات:الطيب هو المستلذ، والحلال المأذون فيه يسمى أيضاً طيباً تشبيهاً بما هو مستلذ،لأنهما اجتمعا فى انتفاء المضرة، فلا يمكن أن يكون المراد بالطيبات هاهنا المحللات وإلا لصار تقدير الآية:أحل لكم المحللات،ومعلوم أن هذا

ركيك،فوجب حمل الطيبات على المستلذ المشتهى،فصار التقدير:أحل لكم كل ما يستلذ ويشتهى[٢٤] .

والمحصنات جمع محصنة وهى العفيفة أو المتزوجة،ومسافحين:السِّفاح هو معاشرة المرأة بغير زواج،أى الزنا، وأخدان: جمع خدنٍ وهو الصديق،ويكفر:الكفر فى لسان الشرع جحود الوحدانية،أو النبوة أو الشريعة،وقد يطلق الكفر على ترك الواجب فى الشريعة،مع تحصيل أصل الإيمان،وذلك للردع والزجر والتغليظ،ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ (آل عمران: من الآية٩٧)، أى ومن لم يحج مع الاستطاعة.

وأصل المادة مستعمل فى الستر والتغطية، تقول كفر الشىء وكفّره-بالتشديد-أى غطّاه،وكفران النعمة:سترها ،وجحدها بترك ما يجب نحوها من شكر المنعم،والكفران يستعمل فى جحود النعمة أكثر مما يستعمل فى جحود الوحدانية والنبوة،والكفر يستعمل فى جحود الوحدانية والنبوة أكثر مما يستعمل فى كفران النعمة،والكفار فى جمع الكافر المضاد للمؤمن أكثر،والكفرة فى جمع كافر النعمة أكثر.

والإيمان : التصديق ، وفى الشرع : التصديق بالقلب، والإقرار باللسان،وحَبِط عمله:الحُباطُ : وجع البطن من الانتفاخ لكثرة الأكل ،أو أكل مالا يوافق ، وحَبِطَت الدّابة حَبَطاً:انتفخ بطنها من كثرة الأكل ،أو من أكل ما لا يوافقها،وحبط العملُ:بطَل،وأحبطَ العملَ:أبطله،قال الزمخشرى حبِط بطنه:انتفخ،ومن المجاز حبط عمله حُبُوطاً وحَبْطاً بالسكون،وأحبط الله عمله[٢٥]، والآخرة:الحياة الآخرة بعد الحياة الدنيا،والخاسرين:يقال:خسر التاجر فى بيعه خسراناً وخَسْراً،وتاجر خاسر،وأخسر الميزان وخسّره وخسره:نقصه،وأخسر فلان وأكسد:وقع فى الخسران والكساد،ومن المجاز:خسرت تجارته وربحت،وتجارة خاسرة،ورابحة،ومَنْ لم يطع الله فهو خاسر.[٢٦]

ولمّا أخبر- تعالى- فى الآية السابقة: ﴿يَسْأَلونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ (المائدة: من الآية٤)،أنه أحل الطيبات وكان المقصود ذكره الإخبار عن هذا الحكم،أعاد ذكره فى هذه الآية،والغرض من ذكره أنه تعالى قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ (المائدة: من

---

(٢٤) مفاتيح الغيب ٥/ ٥٦٨ .

(٢٥) انظر لسان العرب ،وأساس البلاغة مادة "حبط" .

(٢٦) السابق مادة"خسر" .

الآية٣) ، فبيّن أنه كما أكمل الدين،وأتم النعمة فى كل ما يتعلق بالدين، فكذلك أتم النعمة فى كل ما يتعلق بالدنيا،ومنها إحلال الطيبات ، والغرض من الإعادة – هنا – تقرير هذا المعنى وتوكيده.

وحاولت أن أتلمس العلاقة بين هذه الآية، والآية التى بعدها:﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ .... ﴾(المائدة: من الآية٦) ، فاجتهدت رأى المتواضع،وهو أن الحديث فى الآية السابقة"يسألونك ماذا أحل لهم" ،وهذه الآية﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ عن بيان الحلال فى المأكل والمشرب وأيضاً فى العلاقة الزوجية﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ (المائدة:٥) ، ودلالته على الطهارة الباطنة ، انتقل الحديث بعد ذلك إلى الطهارة الظاهرة،وهى الوضوء ، حتى يؤدى العبد أعظم عبادة لله وهى الصلاة ، وقد كملت طهارته الباطنه والظاهرة ،والله أعلم.

وفى بيان المراد بالطعام فى قوله تعالى: ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ (المائدة: من الآية٥) ثلاثة وجوه:(٢٧)

الوجه الأول:أنه الذبائح،يعنى أنه يحل لنا أكل ذبائح أهل الكتاب،وأما المجوس فقد سن فيهم سنة أهل الكتاب فى أخذ الجزية منهم دون أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم،وعن على(ﷺ)أنه استثنى نصارى بنى تغلب،وقال:ليسوا على النصرانية ولم يأخذوا منها إلا شرب الخمر، وبه أخذ الإمام الشافعى – رحمه الله – وعن ابن عباس (ﷺ) أنه سئل عن ذبائح نصارى العرب فقال لا بأس به ، وبه أخذ أبو حنيفة رحمه الله.

الوجه الثانى:أن المراد هو الخبز والفاكهة ومالا يحتاج فيه إلى الذكاة – الذبح–وهو منقول عن بعض أئمة الزيدية.

الوجه الثالث:أن المراد جميع المطعومات ، والأكثرون على القول الأول ورجحوا ذلك من وجوه:

أحدها:أن الذبائح هى التى تصير طعاماً بفعل الذبائح، فحمل قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ على الذبائح أولى.

---

(٢٧) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/ ١٨ الحلبى وشركاه بمصر.،ومفاتيح الغيب ٥/٥٧٤ لفخر الدين الرازى .

ثانيها:أن ما سوى الذبائح فهى محللة قبل أن كانت لأهل الكتاب وبعد أن صارت لهم، فلا يبقى لتخصيصها بأهل الكتاب فائدة.

ثالثها:ما قبل هذه الآية فى بيان الصيد والذبائح ،فحمل هذه الآية على الذبائح أولى.

ثم قال تعالى:﴿ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾(المائدة: من الآية٥)أى يحل لكم أن تطعموهم من طعامكم لأنه لا يمتنع أن يحرم الله أن نطعمهم من ذبائحنا،أو ولكم أن تطعموهم من ذبائحكم كما أكلتم من ذبائحهم، وهذا من باب المكافأة والمقابلة والمجازاة ، كما ألبس النبى (ﷺ) ثوبه لعبد الله بن أبي سلول حين مات ودفنه فيه قالوا:لأنه كان قد كسا العباس حين قدم المدينة ثوبه فجازاه النبى(ﷺ) ذلك بذلك.(٢٨)

وقوله:﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أى وأحل لكم نكاح الحرائر العفائف من النساء المؤمنات،وذكر هذا توطئة لما بعده وهو قوله تعالى :﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ فقيل أراد بالمحصنات الحرائر دون الإماء ،ويحتمل أن يكون المراد الحرة العفيفة، والظاهر من الآية أن المراد من المحصنات العفيفات عن الزنا ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾(النساء: من الآية٢٥) ،ثم اختلف المفسرون والعلماء فى قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ هل يعم كل كتابية عفيفة سواء أكانت حرة أم أمة؟هذا رأى،وقيل المراد بأهل الكتاب هنا الإسرائيليات وهو مذهب الشافعي ، وقيل المراد بذلك الذميات دون الحربيات...إلى آخر ما هو مبسوط فى كتب التفسير.(٢٩)

تأمل بناء الكلام فى الآية،وترتيبه ونسقه،وتركيبه تركيباً متوازياً،الجمله الأولى فيه هى قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ والطيبات تشمل طعام الذين أوتوا الكتاب، وطعام المؤمنين، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم...، أى كل حلال من المستلذ والمشتهى ،فكانت تلك الجملة بذلك بمثابة الأم لبقية الجمل المتتابعة بعدها ،هذا أمر .

الأمر الثانى: ترتيب الألفاظ داخل تلك الجمل المتتابعة، ومجيئُها على نسق واحد هكذا: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾، ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾، ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ

---

(٢٨) انظر تفسير ابن كثير ٢/ ٢٠ .

(٢٩) انظر تفسير بن كثير ٢/٢١ ، والتفسير الكبير٥/٥٧٦ .

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ ، فجاء حرف العطف "بالواو" بعده مبتدأ معرّف بالإضافة فى الجملتين الأولى،والثانية،وبأل فى الجملتين الثالثة والرابعة،وقوله:"حِلٌّ"وقع خبراً صريحاً ظاهراً فى الجملتين الأولى ، والثانية،وهو محذوف فى الجملتين الثالثة والرابعة،لدلالة المذكور عليه،والإضافة فى الجملة الأولى والثانية بمعنى "من" ، والتقدير :والطعام من الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم ،والطعام منكم حلّ لهم ، والمحصنات من المؤمنات،والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب...،فيقع التساوى بين أطراف الجمل،وأركانها،إلا أن البلاغة فيما جاءت عليه الآيات،لأن العدول من الإضافة التى كانت فى الجملتين الأولى،والثانية،"وطعام الذين أوتوا الكتاب...وطعامكم حل لهم..."إلى التعريف بأل فى الجملتين الثالثة والرابعة"والمحصنات من المؤمنات،والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب" فيه دلالة على أهمية تحرى العفة وتلمس الطهارة فى الزواج،لأن"أل"تدل على كمال صفة الإحصان التى ينبغى أن يتحراها المؤمن فيمن يرغب فى الزواج منها.وتكرّر لفظ"طعام"ولفظ"حل"فى الجملتين الأولى والثانية – مع التماثل الإعرابى – ليزداد ترابط الجملتين فى إبراز الحكم وإظهاره ، وهو كون طعام الذين أوتوا الكتاب حلا لنا ،وطعامنا حلاً لهم،وجاء الخبر"حلّ"فى الجملتين نكرة للإشارة أن المراد هو إفادة الحكم لا قصره ، فلو قيل فى غير القرآن : وطعام الذين أوتوا الكتاب الحل – مثلا – لقَصَر هذا القوْلُ الحلالَ على طعام الذين أوتوا الكتاب ، وكذلك فى الجملة الثانية،وهذا غير مراد ، وتأكد ذلك الحكم بمجيء الخبر"حل"اسماً ، لأن طبيعة الجملة الإسمية الدلالة على ثبوت الخبر المفاد بها ، واستمراره " وبيانه أن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضى تجدده شيئا بعد شيء..."[٣٠] ،والجملة لا تدل على حدوث أو ثبوت ولكن الذى يدل على الحدوث أو الثبوت ما فيها من اسم أو فعل.

إن التشابه فى نسق الجملتين الأولى والثانية تشابه كبير كاد أن يصل إلى حد الاتحاد،وذلك لاتحادهما فى الحكم.

أما الجملتان الثالثة والرابعة،وإن كان بينهما،وبين الجملتين السابقتين توافق فى البناء والتركيب إلا أن ثمة تغييراً حدث فى بنائهما،وتركيبهما،افترقتا به عن السابقتين،إذ جاء المبتدأ فيهما – كما قلت من قبل – معرفاً بأل بدلاً من الإضافة التى كانت مع المبتدأ فى

---

(٣٠) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر ص(١٢٩) .

السابقتين،وأيضاً تحول المضاف إليه من الجر بالإضافة إلى الجر بحرف الجر "من" وأصبح المضاف إليه شبه جملة متعلقا بالمبتدأ "والمحصنات من المؤمنات" " والمحصنات من الذين أتوا الكتاب..." وانتقل الخبر"حلّ"من الذكر فى السابقتين إلى الحذف فيهما.

إن هذا التغيير فى بناء هاتين الجملتين وتركيبهما يشير إلى أنهما وإن اشتركتا مع الجملتين الأولى والثانية فى حكم واحد،وهو كون هذه الأصناف من الطيبات التى أحلها الله،إلا أن هنا فرقاً يميز المعنى فى هاتين الجملتين،حيث كان الحديث فى الجملتين الأولى والثانية عن الطعام الذى هو حل للطرفين:المؤمنين،وأهل الكتاب،أما الحديث فى الثالثة والرابعة فكان عن زواج المحصنات الذى هو حلٌّ للمسلمين فقط،ومن ثم كان تقدير الخبر المحذوف"حل لكم"فقيدت الدلالة فى "حل"بـ"لكم" أى المسلمين ولم يأت التحليل للذين أوتوا الكتاب ، ومن هنا كان الافتراق فى البناء والتركيب.

واستعملت الألف واللام فى قوله:"والمحصنات"لاستغراق الجنس،وبنى الفعل للمفعول فى قوله:"الذين أوتوا الكتاب"للعلم بمؤتيه، وقدّم قوله:"والمحصنات من المؤمنات"على قوله: "والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب"إيماء إلى أنهن أولى بالمؤمنين من محصنات أهل الكتاب [٣١]، وتكرّر حرف العطف(الواو)فى بداية كل جملة لترابط هذه الجمل المتتابعة وتماسكها إذ تقع تفصيلا لما أجمل فى قوله:"اليوم أحل لكم الطيبات" ،ولا يخفى سر الوصل بين هذه الجمل ،فإن بينها اتحاداً من حيث تكرار المسند والمسند إليه،وتغايراً من حيث اختلاف المتعلق،وهذا ما يسمى عند البلاغيين باسم التوسط بين الكمالين،أى كمال الاتصال،وكمال الانقطاع .

ثم قال تعالى: ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ ، وتقييد التحليل بإيتاء الأجور يدل على تأكد وجوبها وأن من تزوج امرأة وعزم على أن لا يعطيها صداقها كان فى صورة الزانى ،وتسمية المهر بالأجر يدل على أن الصداق لا يتقدر،كما أن أقل الأجر لا يتقدر فى الإجارات.

وقوله تعالى : ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ فيه بيان أنه كما شرط الإحصان فى النساء وهى العفة عن الزنا،كذلك شرطها فى الرجال، وهو أن يكون الرجل أيضا محصنا عفيفاً،ولهذا قال "غير مسافحين" وهم الزناة الذين لا يرتدعون عن معصية ولا يردون أنفسهم عمن جاءهم ، " ولا متخذي أخدان " أي ذوي العشيقات الذين لا يفعلون إلا

---

(٣١) انظر التحرير والتنوير لابن عاشور ج٦ ص(١٢٣).

معهن ، ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْأِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وفى تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان:

الأول:أن المقصود منه الترغيب فيما تقدم من التكاليف والأحكام ،يعنى ومن يكفر بشرائع الله وبتكاليفه فقد خاب وخسر فى الدنيا والآخرة.

الثانى:قال القفال:المعنى أن أهل الكتاب وإن حصلت لهم فى الدنيا فضيلة المناكحة وإباحة الذبائح فى الدنيا إلاّ أن ذلك لا يفرق بينهم وبين المشركين فى أحوال الآخرة،وفى الثواب والعقاب،بل كل مَنْ كفر بالله فقد حبط عمله فى الدنيا ولم يصل إلى شيء من السعادات فى الآخرة ألبتة.(٣٢)

وقوله تعالى "ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله " فيه إشكال،وهو أن الكفر إنما يعقل بالله ورسوله،أما الكفر بالإيمان فهو محال،لأن الإيمان أمر عقلى والكفر يتعلق بالذوات،أو المحسوسات ، ولهذا اختلف المفسرون على وجوه:

الأول:قال ابن عباس ومجاهد"ومن يكفر بالإيمان"أى ومن يكفر بالله وفيه مجاز مرسل،لأنه – تعالى– رب الإيمان،ورب الشيء قد يسمى باسم ذلك الشيء على سبيل المجاز.

الثانى:قال الكلبى"ومن يكفر بالإيمان"أى بشهادة أن لا إله الله،فجعل كلمة التوحيد إيماناً ، فإن الإيمان بها لما كان واجباً كان الإيمان من لوازمها بحسب أمر الشرع،وإطلاق اسم الشيء على لازمه مجاز مرسل أيضاً.

الثالث:قال قتادة:إن ناساً من المسلمين قالوا: كيف نتزوج نسائهم مع كونهم على غير ديننا ، فأنزل الله – تعالى – هذه الآية،أى ومن يكفر بما نزل فى القرآن فهو كذا وكذا،فسمى القرآن إيماناً لأنه هو المشتمل على بيان كل ما لابد منه فى الإيمان.(٣٣)

والمراد بقوله تعالى "فقد حبط عمله"أن عمله الذى أتى به بعد ذلك الإيمان فقد هلك وضاع.

وبنى الكلام فى أسلوب شرط"ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله"ليدل على التلازم بين فعل الشرط "يكفر"وما يترتب عليه فى الجواب"فقد حبط عمله"وأن هذه النتيجة حتمية لا محالة،وتأكيداً لهذه النتيجة،جاء جواب الشرط جملة فعلية فعلها ماضٍ مسبوق بقد التى تفيد التحقيق،وزيادة فى تأكيد هذه النتيجة المؤلمة،جاء قوله: "وهو في الآخرة من الخاسرين"

---

(٣٢) مفاتيح الغيب ٥/٥٨٧ .

(٣٣) مفاتيح الغيب ٥/٥٧٨.

مصاغاً فى جملة إسمية معطوفة على جواب الشرط،أى أنه من يكفر بالإيمان فقد بطل عمله وضاع سعيه،ومن ثم لا ثمرة له فى الدنيا ولا حسنة له فى الآخرة،وهو من الخاسرين.

والإحباط فى قوله: "فقد حبط عمله"مراد به إظهار البطلان،وليس المراد أنه أبطله،لأنه باطل منذ عمل لأن الإيمان شرط فى صحة العمل ،وأصل الحبط أن تأكل الدابة حتى تنتفخ بطنها فتموت،ويأتى مع الأعمال مجازاً ، ووجه هذا المجاز تشبيه الإبطال بالإحباط بجامع ما يترتب على كل من عدم الفائدة ثم استعارة الإحباط للإبطال على طريقة الاستعارة التبعية،وهذا العمل الذى خلا من الإخلاص لله،والإيمان به وكان باعثه إرضاء النفس ، واتباع الشهوات،لما كان هذا العمل هكذا أحبطه الله وأبطله،وجعله هباء منثوراً لا قيمة له،ولا فائدة فيه كجيفة الدابة التى أكثرت الأكل بلا فائدة حتى انتفخت بطنها فماتت.

وفى قوله" ... من الخاسرين"مجاز ،وجهه تشبيه الآخرة بسوق يربح فيه من يربح ويخسر فيه من يخسر ،وحذف المشبه به على سبيل الاستعارة المكنية، وبقيت صفة من صفاته تدل عليه وهى قوله:"الخاسرين"،تلك الاستعارة،أو ذلك المجاز فيه شحذ للهمم،وحث على الجد والاجتهاد فى الطاعة ،والعمل الصالح حتى يفوز صاحبه بربح وافر،ومكسب كبير،هو جنة عرضها السموات والأرض ،ورضوان من الله أكبر.

أو يكون المجاز فيه بتشبيه بطلان العمل ،وهلاكه بالخسارة،والجامع ما يترتب على كل من عدم الفائدة،ثم استعار الخسارة للبطلان أو الهلاك على سبيل الاستعارة التبعية،ثم اشتق من الخسارة بمعنى الهلاك خاسر بمعنى هالك... ٠

٢-جملة إسمية فيها المسند إليه مفرد،والمسند جملة إسمية:

وذلك نحو قوله تعالى فى سورة الواقعة"١-١٢":﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (الواقعة ١: ١٢) .

بعد أن عدّد الله نعمه على الإنسان فى سورة الرحمن، وطالبه بالشكر ومنعه عن التكذيب، ذكر- سبحانه- هنا فى سورة الواقعة الجزاء بالخير لمن شكر ،وبالشر لمن كذب وكفر ، واختتمت آيات الرحمن بقوله: "تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام" إشارة إلى علو اسمه - تعالى- وعظمة شأنه،وكمال قدرته وعز سلطانه،وتتجلى مظاهر كمال تلك القدرة وإطلاقها وبسطها على الخلائق جميعاً"إذا وقعت الواقعة".

والواقعة من أسماء يوم القيامة سميت بذلك لتحقق كونها ،ووجودها ، واعتراف كل أحد بها،أو سميت بذلك لأنها تزلزل الناس ،فتخفض المرتفع ،وترفع المنخفض،وعلى هذا فهى كقوله تعالى فى سورة الحجر:﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ (الحجر:٧٤) ، فى الإشارة إلى شدة الوقعة ،لأن العذاب الذى جعل العالى سافلاً بالهدم،والسافل عالياً حتى صارت الأرض المنخفضة كالجبال الراسية،والجبال الراسية كالأرض المنخفضة أشد وأبلغ .

والواقعة التى تقع،ترفع المنخفضة فتجعل من الأرض أجزاء عالية ومن السماء أجزاء سافلة،ويدل عليه قوله:"إذا رجت الأرض رجا ،وبست الجبال بسا" فإنه إشارة إلى أن الأرض تتحرك بحركة مزعجة ،والجبال تتفتت،فتصير الأرض المنخفضة كالجبال الراسية،والجبال الشامخة كالأرض السافلة.[٣٤]

ويحتمل أن تكون"الواقعة "صفة لمحذوف وهو القيامة أو الزلزلة،ويحتمل أن يكون المحذوف شيئا غير معين،وتكون تاء التأنيث مشيرة إلى شدة الأمر الواقع وهوله ،كما يقال :كانت الكائنة،والمراد كان الأمر كائنا ما كان ،فزيدت تاء التأنيث فى "كائن"للمبالغة.

والعامل فى "إذا"على أوجه:أحدها هو مفعول اذكر ،والثانى هو ظرف العامل فيه "ليس لوقعتها كاذبة"أى إذا وقعت لم تكذب،والثالث هو ظرف لخافضة أو رافعة،أى إذا وقعت خفضت ورفعت،والرابع هو ظرف لرجت ،وإذا الثانية على هذا تكرير للأولى،أو بدل منها،والخامس هو ظرف لما دل عليه"فأصحاب الميمنة" أى إذا وقعت بانت أحوال لناس فيها[٣٥] .

وقوله تعالى:"ليس لوقعتها" إشارة إلى أنها تقع دفعة واحدة ،فالوقعة للمرة الواحدة،وقوله تعالى: "كاذبة"بمعنى الكذب كالعاقبة،والعافية،وقيل التقدير :ليس لها حالة كاذبة:أى مكذوب فيها،أى كان الكلام على طريقة المجاز العقلى علاقته المفعولية، وفيه تخييل ومبالغة فى إثبات المعنى.

واللام فى قوله تعالى:"لوقعتها" للتعليل،أى لا تكذب نفس فى ذلك اليوم لشدة وقعتها،أو تكون للتعدية،والتقدير :إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها أمر يوجد ،لها كاذب.

---

(٣٤) انظر تفسير بن كثير ٢٨٢/٤ ومفاتيح الغيب ٢٣٨/٥ .

(٣٥) انظر التبيان فى إعراب القرآن للعكبرى ٢٥٣/٢ المكتبة التوفيقية بالقاهرة.

وقوله تعالى: "خافضة رافعة"خبر مبتدأ محذوف ؛أى هى خافضة قوما،ورافعة آخرين، وقرئ بالنصب على الحال من الضمير فى كاذبة أو فى وقعت،وترك العطف بين "خافضة رافعة"لإثبات صفتى الخفض والرفع للواقعة بلا تمييز بينهما،أو فصل،وهذا يؤكد طلاقة قدرة مَنْ أوقع الواقعة،وجعلها تجمع بين المتناقضين فى آن واحد،سبحانه سبحانه!.

وقوله تعالى"إذا رجت الأرض رجا" أى حركت تحريكا فاهتزت واضطربت بطولها وعرضها ،أو معناه زلزلت زلزالاً [٣٦]، و"إذا"هنا بدل من "إذا"الواقعة فى صدر الآيات،وقيل ظرف لرافعة،وقيل مفعول "اذكر" ، وقوله تعالى: "وبست الجبال بسا" البسُّ:التفتيت ،والتفريق والمعنى :وفتتت الجبال فتاّ،ولا يخفى تأكيد المصدر فى الجملتين"رجا،بسا" للعامل"رجت–بست"وبيان أن هذين الحدثين وقعا بشدة لأنهما صدرا عن قدرة مطلقة،وكان بناء الفعلين للمجهول فيه إشارة إلى تلك القدرة الواسعة غير المحددة، أو أن البناء للمفعول كان بسبب العلم بالفاعل ، وأنه ليس فى حاجة إلى النص عليه.

وجاء قوله تعالى: "فكانت هباءً منبثاً" بالفاء التى رتبت صيرورة الجبال هباءً منبثاً على تفتيتها وبسّها بلا تراخ ،أى صارت هباء منبثا بعد بسّها وتفتيتها ،والهباء الذى يطير من النار إذا اضطرمت يطير منه الشرر،فإذا وقع لم يكن شيئا ،وقال عكرمة: المنبث الذى قد ذرته الريح وبثته،وقال قتادة:"هباء منبثا" كيبيس الشجر الذى تذروه الرياح.[٣٧] .

ونلحظ فى هذا النسق المتشابه بين الجملتين :إذا رجت الأرض رجا وبست الجبال بسا" قوة فى التماثل والتشابه ،فالمسند إليه فيهما نائب فاعل ،والمسند مبنى للمفعول ،والمفعول المطلق جاء فيهما لتأكيد العامل ،هذا التشابه فى بناء الجملتين يؤكد تشابه معنيهما فى كونهما مظهرين من مظاهر قدرة الله المطلقة،وجاء العطف بينهما ،لأن الأرض والجبال من الأمور التى اجتمعت فى خيال الإنسان ،أو بحكم التلازم بينهما إذ يلزم للأرض الدائرة،أوتاد كالجبال تثبتها وأيضا قرب المعنى فى المسند "رجت وبست" كل ذلك سوغ العطف وأجازه ،وهذا ما يعرف عن البلاغيين بالتوسط بين الكمالين، كمال الاتصال وكمال الانقطاع .

وقوله تعالى:"وكنتم أزواجاً ثلاثة" أى ينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف:قوم عن يمين العرش ،وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيمن ويؤتون كتبهم بأيمانهم ، ويؤخذ بهم ذات

---

(٣٦) تفسير ابن كثير ٤/٢٨٢ .

(٣٧) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٨٢ .

اليمين،قال السدى:هم جمهور أهل الجنة، وآخرون عن يسار العرش ،وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيسر ويؤتون كتبهم بشمالهم ،ويؤخذ بهم ذات الشمال،وهم عامة أهل النار – أعاذنا الله – وطائفة سابقون بين يديه – عز وجل– وهم أخص،وأحظى، فيهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء، وهم أقل عددا من أصحاب اليمين، ولهذا قال تعالى:"فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة،وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة ، والسابقون السابقون" وهكذا قسمهم إلى هذه الأقسام، والأنواع الثلاثة فى آخر السورة وقت احتضارهم.

والفاء فى قوله تعالى:"فأصحاب الميمنة"تدل على التفسير ،وبيان ما ورد على التقسيم،كأنه قال:أزواجا ثلاثة،أصحاب الميمنة،وأصحاب المشئمة والسابقون إلخ ،ثم بين حال كل قوم فقال :"ما أصحاب الميمنة..." .

ولفظ" أصحاب"مبتدأ أول مضاف،و"الميمنة "مضاف إليه،و"ما" مبتدأ ثان خبره" أصحاب الميمنة"والمبتدأ الثانى وخبره فى محل رفع خبر المبتدأ الأول وكذلك يقال فى قوله: "وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة" والرابط الذى ربط جملة الخبر بالمبتدأ هوإعادة لفظ المبتدأ.

و"ما" فى الآيتين استفهامية،أفادت التفخيم،والتعظيم،والتعجب،ووضع المظهر موضع المضمر، فى قوله تعالى: "فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة..." بدلاً من "ما هم" للإشارة إلى عظم شأن أصحاب اليمين وتفخيم أمرهم،وتأكيد الصفة المدلول عليها بالاسم الظاهر"أصحاب الميمنة" وتقريرها، ومن ثم فهم قريبون من رحمة الله ورضوانه.

كذلك يقال فى قوله:"و أصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة" من أن وضع المظهر موضع المضمر كان لإفادة تحقير شأن هؤلاء،وتأكيد أنهم أصحاب الشمال ومن ثم فهم بعيدون عن رحمة الله ورضوانه.

وقوله تعالى:"والسابقون السابقون أولئك المقربون"،الأول مبتدأ والثانى خبره:أى السابقون بالخير،السابقون إلى الجنة،وقيل الثانى نعت للأول أو تكرير للتوكيد، والخبر "أولئك".[٣٨]

---

(٣٨) انظر التبيان فى إعراب القرآن ص(٢٥٣) .

أو المعنى :والسابقون إلى طاعة الله،هم السابقون إلى رحمته وكرامته،ثم قيل: المراد بهم السابقون إلى الإيمان من كل أمة،وقيل: الذين صلوا إلى القبلتين،وقيل: أهل القرآن، وقيل :السابقون إلى المساجد،وإلى الخروج فى سبيل الله،وقيل هم الأنبياء.[٣٩]

ولما امتثل هؤلاء أمر ربهم،وبادروا إلى فعل الخيرات كما أمروا كان الجزاء من جنس العمل ولهذا قال الله تعالى:"أولئك المقربون فى جنات النعيم".

وتعريف الطرفين هنا "أولئك المقربون"يقتضى الحصر،أى أن هؤلاء بلغوا فى درجة القرب من الله ورضوانه مبلغا،كأن وحدهم هم المقربون،وهذا يعرف عند البلاغيين بالقصر الادعائى.

والإشارة إليهم بالبعيد "أولئك" فيه دلالة على منزلتهم العالية،ودرجتهم الراقية،ومكانتهم السامية.

وتأمل كيف كان بناء الكلام فى هذه الآيات،وكيف جاء التركيب فيها،وعلى أية صورة كان نظمها،وتأليفها؟!...هذا هو شاهدنا.

إنه التركيب المتوازى الذى يعد نسقا من أنساق نظم القرآن،وبناء ألفاظه، تضافرت فيه عدة عناصر حتى كان كذلك،انظر كيف جاء المعنى مجملا فى قوله تعالى:"وكنتم أزواجا ثلاثة"وكانت هذه الجملة الأم لما جاء بعدها من جمل مفصلة لها،فترابطت الجمل كلها،وتلاحمت حتى صارت كأنها جملة واحدة،ولا يخفى أن المعنى إذا دل عليه بطريق الإجمال ،استشرفت النفس إلى معرفته مفصلا،فإذا فصّل وقع فى نفس متهيئة له،فتمكن منها فضل تمكن،وتفصيله كان فى بناء متواز،تأمل قوله:"فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة،وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة.والسابقون السابقون أولئك المقربون" تجد أن الجمل قد تساوت فى التركيب،وتوازت فى النحو،فكل جملة منها تكونت من مبتدأ وخبر،بل تساوت الجملتان الأولى،والثانية فى ذلك ،فأتى فيهما مبتدأ أول،خبره المبتدأ الثانى وخبره (أصحاب الميمنة.ما أصحاب الميمنة)و(أصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة).

---

(٣٩) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن-لأبى يحيى زكريا الأنصارى- ص(٤٠٩) .

أيضا من العناصر المتضافرة فى تكوين التركيب المتوازى الطباق الكائن بين "الميمنة والمشئمة" فناسب بين المعنيين فى الجملتين بالتضاد والتقابل فبرز المعنى واضحاً،لأن المعانى المتقابلة أسرع خطوراً بالبال.

وكذلك التكرار فى"ما،أصحاب،الميمنة،المشئمة،السابقون"أحدث تماثلاً فى الجمل، وألفاظها ، فزاد من التوازى بينها،فضلا عن تأكيد المعنى،فالاستفهام الذى تكرر بـ"ما" تأكد فيه دلالته على التعجب والتعظيم ، ووضع المظهر موضع المضمر الكائن بتكرار"أصحاب الميمنة"و"أصحاب المشئمة"، تأكد فيه المعنى المفاد بتلك الألفاظ المكررة،وكذلك"السابقون"،وأيضا تكرار حرف العطف "الواو"من أجل الربط بين هذه الجمل ، هذا التركيب المتوازى فى بناء الجمل يؤكد تشابه معانيها فى كونها أصنافاً للناس يوم القيامة.

٣-جملة إسمية فيها المسند إليه مفرد والمسند جملة فعلية:

مثل قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (المنافقون:١) .

ارتبطت سورة" المنافقون"بسورة الجمعة قبلها،بأن تلك السورة مشتملة على ذكر بعثة الرسول(ﷺ) وذكر من كان يكذبه قلبا ، ولسانا بضرب المثل في قوله تعالى: " مثل الذين حملوا التوراة ..." وهذه السورة تتحدث عمن كان يكذبه(ﷺ) قلبا دون اللسان، ويصدقه لسانا دون القلب ، وارتبطت هذه الآية بآخر تلك السورة،حيث جاء فيه تنبيه لأهل الإيمان على تعظيم الرسول(ﷺ) ورعاية حقه بعد النداء لصلاة الجمعة، وتقديم متابعته فى الأداء على غيره،فقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسَعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ (الجمعة:٩) ، إلى قوله تعالى:﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (الجمعة:١١) ، مشيرا – سبحانه – إلى أن امتثال أوامره يكون علامة إيمان وإخلاص ،وأن ترك تعظيم شأن النبى،ومتابعته وهو يخطب يوم الجمعة من شيم المنافقين، والمنافقون هم الكاذبون ، فكانت هذه الآية بمثابة تصريح بما ألمح إليه وأشير به فى آخر تلك السورة.

والنفاق:الدخول فى الإسلام من وجه،والخروج عنه من وجه آخر ،مشتق من نافقاء اليربوع،وقد نافق منافقة ونفاقا،وقد تكرر فى الحديث ذكر النفاق وما تصرف منه اسما وفعلا،وهو اسم إسلامى لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به،وهو الذى يستر كفره

ويظهر إيمانه،وإن كان أصله فى اللغة معروفا،يقال:نافق ينافق منافقة ونفاقا،وهو مأخوذ من النافقاء لا من النّفق وهو السّرب الذى يستتر فيه لستره كفره،وفى حديث حنظلة،نافق حنظلة،أراد أنه إذا كان عند النبى(ﷺ) أخلص وزهد فى الدنيا ، وإذا خرج عنه ترك ما كان عليه ورغب فيها،فكأنه نوع من الظاهر والباطن،ما كان يرضى أن يسامح به نفسه،وفى الحديث :أكثر منافقى هذه الأمة قرّاؤها،وأراد بالنفاق ها هنا الرياء لأن كليهما إظهار غير ما فى الباطن.(٤٠)

والله- عز وجل – فى هذه الآية يخبر عن المنافقين أنهم يتفوهون بالإسلام إذا جاءوا النبى(ﷺ) فأما فى باطن الأمر فليسوا كذلك،بل على الضد من ذلك،ولهذا قال تعالى"إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله " أى إذا حضروا عندك واجهوك بذلك،وأظهروه لك،وليس كما يقولون ولهذا اعترض بجملة مخبرة أنه رسول الله فقال تعالى:"والله يعلم إنك لرسوله" أى أنه أرسلك فهو يعلم إنك لرسوله،"والله يشهد إن المنافقين لكاذبون" أى فيما به وإن كان مطابقاً للخارج لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه،ولهذا كذبهم،لأن قولهم: "نشهد إنك لرسول الله"معناه نشهد شهادة وافقت فيها قلوبنا ألسنتنا ،أى تطابق فيها اعتقادنا مع كلامنا بدليل أنهم أكدوا ذلك بإن واللام وإسمية الجملة،ولا يكون هذا التأكيد إلا ليدللوا على أن قلوبهم وافقت ألسنتهم فى الشهادة،فالتكذيب راجع إلى قولهم :نشهد وادعائهم مواطأة قلوبهم لألسنتهم ، لا إلى قولهم "إنك لرسول الله"،لأن المنافقين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم فكذبهم الله حينما أكدوا الشهادة بما ذكر،أو أن التكذيب راجع إلى تسميتهم قولهم:"إنك لرسول الله"شهادة لأنه إخبار خالٍ من المواطأة للقلوب ،والإخبار الخالى من المواطأة لا يسمى شهادة فى الحقيقة ،أو أن المعنى أنهم كاذبون فى قولهم "إنك لرسول الله"عند أنفسهم لاعتقادهم أنه خبر على خلاف ما عليه حال المخبرعنه.(٤١)

ونلحظ فى قوله تعالى:"والله يعلم إنك لرسوله"وقوله-سبحانه-"والله يشهد إن المنافقين لكاذبون" نسقا متوازيا فى تركيب الجمل ،اعتمد على التكرار،فتكرار حرف العطف"الواو"ولفظ الجلالة "الله"،وحرف التوكيد"إن"،وحرف اللام المؤكد ،وأيضا اعتمد التوازى على مواقع هذه المكررات الإعرابية، فالواو كانت لعطف الجمل فيما تكررت فيه،ولفظ الجلالة"الله"مبتدأ،جاء

---

(٤٠) انظر اللسان مادة"نفق".

(٤١) انظر بغية الإيضاح ٣٩/١ .

خبره فى الجملتين جملة فعلية فعلها مضارع مثبت "يعلم- يشهد"،وإن واللام كانتا لتوكيد المعنى المفاد بالجملتين وتقويته.

هذا التوازى فى بناء الجمل يؤكد تضامن هذه الجمل فى بيان المعنى المراد وأنها جميعا تهدف إليه،وتلح عليه،ذلك المعنى هو صدق رسول الله(ﷺ) فى ادعائه الرسالة،وكذب المنافقين فى ادعائهم أنهم يصدقون رسول الله فى ذلك.

وقد أشار الإمام الزمخشرى إلى فائدة فى قوله تعالى: "والله يعلم إنك لرسوله" فقال:"لو قال:"قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يشهد إنهم لكاذبون" لكان يوهم أن قولهم هذا كذب ،فوسط بينهما قوله"والله يعلم إنك لرسوله" ليميط هذا الإبهام.(٤٢)

وتأمل أيها الموحد صدرالآية:"إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله"وعجزها "والله يشهد إن المنافقين لكاذبون" تجده قد نقض تلك الشهادة التى كانت فى الصدر بلغة حاسمة،قوية،صيغت فى جملة إسمية مؤكدة بإن واللام،"إن المنافقين لكاذبون"،وقد تكرر فيها لفظ "المنافقين"،رابطا أول الآية بآخرها،وصدرها بعجزها، فضلا عن تسجيل هذه الصفة عليهم بذكرها مرة أخرى باسمها صراحة،وهو ما يعرف بوضع المظهر موضع المضمر ،وأيضاً تكرار الفعلين"نشهد"الواقع فى الصدر، و"يشهد"الواقع فى العجز،زاد من هذا الربط وعمقه،وكذلك البناء المتشابه فى "نشهد إنك لرسول الله""والله يشهد إن المنافقين لكاذبون"حيث جاءت الجملتان"إنك لرسول الله"،و"إن المنافقين لكاذبون"معمولتين للشهادة،فى بناء نحوى واحد:إنّ واسمها وخبرها المقترن بلام التوكيد،إن هذا التوازى فى تركيب الجملتين،إنما كان لاتصال المعنى فيهما وترابطه القائم على نقض العجز للصدر وإبطال الآخر للأول:وتكرار مادة "شهد"فى صدر الآية وعجزها فضلا عن إحداثها ترابطاً للمعانى والألفاظ،أجد فى إسناد هذه المادة لله-عز وجل- فى قوله تعالى "والله يشهد إن المنافقين لكاذبون" ، إنما كان على سبيل المشاكلة لكلام المنافقين،لأنه كان يمكن أن يقال فى غير القرآن "ويعلم إن المنافقين لكاذبون"أو"إن المنافقين لكاذبون"عطفا على قوله تعالى: "والله يعلم إنك لرسوله"،ولكن الأوجه،والأليق ما كان عليه القرآن ، إذ حدثهم بحديثهم ، ورد كذبهم وأظهره،بنفس أسلوبهم،فضلا عن التوكيد الكائن بذكر لفظ الجلالة مكرراً وبث المهابة فى

---

(٤٢) الكشاف ٢٥٢/٣ ، ٢٥٣ .

قلوب هؤلاء بذكره صريحا بدلا من الإضمار ،لأنه يمكن أن يقال"وهو يشهد إن المنافقين لكاذبون".

أرأيت كيف تزاحمت المعانى داخل الآية بفضل ذلك التركيب المتوازى فى جملها؟!!

وكسرت همزة إن الواقعة بعد الفعل "يعلم"فى قوله تعالى:"والله يعلم إنك لرسوله" لدخول اللام فى الخبر"لرسوله"،فأصبحت بذلك فى تقدير التقديم،فعلقت الفعل "يعلم"عن العمل ،لأن "إن"تفتح همزتها بعد"علم"وأخواتها"،فلما علقت عن العمل بقيت همزة "إن"مكسورة وتعطيل أثر الفعل كان فى اللفظ فقط ،أما معناه فباقٍ .

٤-جملة إسمية فيها المسند إليه مفرد ،والمسند شبه جملة:

من ذلك قوله تعالى:﴿ وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (العنكبوت٣٨ :٤٠) .

بعد أن أخبر-سبحانه وتعالى- فى الآية السابقة عن عبده ورسوله شعيب عليه السلام أنه أنذر قومه أهل مدين فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له،وأن يخافوا بأس الله وعذابه وسطوته يوم القيامة فكذبوه فأخذتهم رجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم ، وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها ، فأصبحوا فى دارهم جاثمين بالموت،أو ألقى بعضهم على بعض.

بعد هذا يخبر -تعالى- فى هذه الآيات عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسل كيف أبادهم وتنوع فى عذابهم(٤٣) ، فقال تعالى: "وعادا وثمودا"أى أهلكنا عادا وثمود، لأن قوله تعالى "فأخذتهم الرجفة"دل على الإهلاك.

وقوله تعالى"قد تبين لكم من مساكنهم"أى الأمر،وما تعتبرون منه،فعاد قوم هود عليه السلام كانوا يسكنون الأحقاف وهى قريبة من حضرموت،بلاد اليمن،وثمود قوم صالح كانوا يسكنون الحجر قريبا من وادى القرى وكانت العرب تعرف مساكنهما جيداً،وتمر عليها كثيرا،وقارون صاحب الأموال الجزيلة ،ومفاتيح الكنوز الثقيلة ، وفرعون ملك مصر فى زمان موسى،ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله تعالى وبرسوله موسى _عليه السلام- .

---

(٤٣) انظر تفسير ابن كثير ٤١٢/٣ ، ٤١٣ .

ثم بين سبب ما جرى عليهم فقال تعالى:"وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل"أى زين لهم عبادتهم لغير الله، والفاء في قوله تعالى " فصدهم عن السبيل " دلت على ترتب إعراض هؤلاء عن عبادة الله على تزيين الشيطان لهم عبادتهم لغير الله ترتيبا بلا مهلة،ولا روية،فهم ألعوبة فى يد الشيطان يحركها كيف شاء وقتما شاء،لا عقل لهم ، ولا فكر سديد يبصرهم بالصواب. ، وأل فى "السبيل"للعهد،أى السبيل القويم،المعهود،والمعروف بذلك.

وقوله"وكانوا مستبصرين"أى مستبصرين السبيل بواسطة الرسل الذين أوضحوه لهم وبينوه،ومن ثم لا عذر لهم.

وفى اختيار مادة "بصر" للدلالة على أنهم على علم ودراية بضلال الطريق الذى اختاروه،وأن طريق الحق والرشاد فى عبادة الله وحده،أقول:فى اختيار مادة بصر للدلالة على هذا،فيه إشارة إلى أن الرسل لم يدخروا جهدا فى دعوتهم هؤلاء إلى سبيل الرشاد،وما تركوهم حتى وضحت تلك السبل واستبانت وأصبحت رأى العين.

ثم قال تعالى:"وقارون وفرعون وهامان"عطفا عليهم:أى وأهلكنا قارون وفرعون وهامان،ثم قال تعالى: "ولقد جاءهم موسى بالبينات" كما قال فى عاد وثمود"وكانوا مستبصرين"،أى بالرسل،والبينات هى الآيات الواضحات الظاهرات التى لا لبس فيها ولا غموض ،واكتفى هنا بذكر الصفة عن الموصوف إبرازا لهذه الصفة فى الآيات التى جاء بها موسى–عليه السلام– لهؤلاء.

ثم قال تعالى"فَاسْتَكْبَرُوا"أى عن عبادة الله،والفاء هنا دلت على عنادهم وأنهم لم يعطوا عقولهم لحظة للتفكير فيما جاء به سيدنا موسى عليه السلام،وإنما استجابوا سريعاً لهواهم وعنادهم.

وقوله "فى الأرض " إشارة إلى ما يوضح قلة عقلهم فى استكبارهم،وذلك لأن من فى الأرض أضعف أقسام المكلفين،ومن فى السماء أقواهم ثم إن من فى السماء لا يستكبر على الله وعن عبادته،فكيف يستكبر من فى الأرض.(٤٤)

ثم قال تعالى "وما كانوا سابقين"أى ما كانوا يفوتون الله،لأن أقطار الأرض فى قبضة قدرة الله،كذلك السماء ،فأين يذهبون؟!

"فكلاً أخذنا بذنبه"أى كانت عقوبته بما يناسبه "فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا"وهم عاد وذلك أنهم قالوا:من أشد منا قوة،فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد،عاتية شديدة الهبوب جدّاً

---

(٤٤) انظر مفاتيح الغيب ١٢/٣٩٥ .

تحمل عليهم حصباء الأرض فتلقيها عليهم،وتقتلعهم من الأرض فترفع الرجل من الأرض إلى عنان السماء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى بدناً بلا رأس كأنهم أعجاز نخل منقعر،"ومنهم من أخذته الصيحة"وهم ثمود قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة من تلك الناقة التى انفلقت عنها الصخرة مثل ما سألوا سواء بسواء،ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم،وتهددوا نبى الله صالحا،ومن آمن معه ،وتوعدوهم بأن يخرجوهم ويرجموهم فجاءتهم صيحة أخمدت الأصوات منهم والحركات"، ومنهم من خسفنا به الأرض"وهو قارون الذى طغى وبغى وعتا وعصى الرب الأعلى ومشى فى الأرض مرحا وفرح ومرح وتاه بنفسه واعتقد أنه أفضل من غيره واختال فى مشيته،فخسف الله به وبداره الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة،"ومنهم من أغرقنا"،وهو فرعون ووزيره هامان وجنودهما عن آخرهم أغرقوا فى صيحة واحدة،فلم ينج منهم أحد"وما كان الله ليظلمهم"أى فيما فعل بهم،"ولكن كانوا أنفسهم يظلمون"أى إنما فعل ذلك بهم جزاء وفاقا بما كسبت أيديهم.

ويلاحظ أن الله–عز وجل–قد ذكر أصنافاً أربعة من العذاب : العذاب بالحاصب: قيل:إنها حجارة محماة كانت تقع على الواحد منهم فتنفذ من الجانب الآخر،وفيه إشارة إلى النار،أعاذنا الله منها.(٤٥)

والعذاب بالصيحة وهو هواء متموج يحدث صوتاً شديداً يصل إلى غشاء الأذن فيقرعه قرعاً شديداً فيتألم الإنسان لذلك.

والعذاب بالخسف وهو الغمر فى التراب،والعذاب بالإغراق فى الماء فحصل العذاب بالعناصر الأربعة، والإنسان مركب منها،وبها قوامه،وبسببها بقاؤه ودوامه، فسبحان من جعل سبب الوجود والبقاء،سبب العدم والفناء.

تأمل كيف أجمل هذه الأصناف الأربعة،فقال–تعالى–"فكلا أخذنا بذنبه" فاستشرفت النفس لمعرفتها بالتفصيل،وتشوقت إلى ذلك، فتهيأت بسماع التفصيل، والتبيين،حتى إذا جاء استوعته واستوعبته، إنها طريقة الإجمال والتفصيل،أو اللف والنشر وهو ذكر متعدد على جهة الإجمال أو التفصيل،ثم ما لكلِّ واحد من غير تعيين ثقة بأن السامع يرده إليه.(٤٦)

---

(٤٥) انظر مفاتيح الغيب ١٢/٣٩٥ .

(٤٦) انظر الإيضاح ٦/٤٢ شرح وتعليق د/محمد خفاجى –ط ثالثة المكتبة الازهرية للتراث.

ولا يخفى جمال هذه الطريقة التى أجملت تلك الأصناف،وأومأت بذلك إلى اشتراكهم جميعا فى الكفر والطغيان،فضلا عن تحريك الذهن الذى كان–كما قلت–بالإجمال،وإثارة الفكر فى الوقوف على ما يرجع إليه اللفظ،،والتدقيق فى ذلك حتى يستقيم المعنى،ويستبين المراد.

وهذه سبيل من سبل البيان الشريف،ونمط عال فى البلاغة،وبخاصة أن التفصيل فيه جاء في جمل تركيبها متوازٍ ،وترتيبها متّحدٌ،تأمل "فَمِنْهُمْ مَنْ أرسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصباً" "وَمنهم منْ أخذته الصيحة " "ومنهم من خسفنا به الأرض" "ومنهم من أغرقنا " كل هذه الجمل قد ارتبطت بالجملة الأم"فكلا أخذنا بذنبه"التى أجملت الأصناف الأربعة،ثم انبثق تفصيل تلك الأصناف من الإجمال ،وخرج من رحمه فى جمل توازى تركيبها بتكرار الخبر شبه الجملة"منهم"و"من"هنا تبعيضية أى جزء من الكل فى المجمل الأول "كلاّ" في الجملة الأم ،وأيضاً تكرار المبتدأ اسم الموصول "مَنْ"ثم تنوّع العذاب واختلف فى صلة الموصول إلى أربعة أنواع هى:"أرسلنا عليه حاصباً" " أخذته الصيحة" "خسفنا به الأرض " "أغرقنا" تعود كلها إلى المجمل الثانى "أخذنا بذنبه " فى الجملة الأم،وأيضاً تكرار حرف العطف " الواو " فى تلك الجمل ،ودلالته على وجود قدر من الاتفاق بينها ولولاه ما صح الربط أو العطف (التوسط بين الكمالين)،وقد أشرت إلى ذلك كثيراً.

إن هذا التركيب فى الجمل بتلك الهيئة،وهذا التماثل يؤكد ترابط هذه المعانى فى تلك الجمل ،تأمل العلاقة بين الإجمال والتفصيل من جهة ، وبين عناصر التفصيل بعضها ببعض من جهة أخرى،وارتباط الألفاظ بتكرارها كالخبر المقدم "منهم" الواقع فى صدر كل جملة من الجمل المتتابعة،يعقبه مبتدأ مؤخر ،اسم موصول "مَنْ" وصلته جملة فعلية فعلها ماض ،يحكى حدثا وقع فيه الفاعل "نا" الفاعلين الدالة على عظمة محدث هذه الأحداث والمنبثقة من "نا" "أخذنا"المجملة لتلك الأحداث.

أما التغاير الطفيف الواقع فى بعض الجمل ،فقد كان لأغراض بلاغية أخرى، مثل إسناد الفعل "أخذ" إلى "الصيحة"،فى قوله تعالى: "ومنهم من أخذته الصيحة" ومغايرته لبقية الأفعال المسندة إلى "نا"الفاعلين ،لإبراز–والله أعلم– قوة هذا السبب وهو الصيحة،على سبيل المجاز العقلى ،لأن الآخذ الحقيقى هو الله ، وإنما الصيحة سبب فى هذا الأخذ.

أيضاً التباين الذى كان فى المفعول به فى قوله تعالى: "فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا" "ومنهم من خسفنا به الأرض" فجاء فى الأول نكرة للتهويل حتى يناسب المعذبين به،وهم عاد قوم هود،الذين ظنوا أنهم أشد الناس قوة وبأساً،وجاء فى الثانى معرفة للتعيين

والتحديد،لأن المخسوف به الأرض هو قارون الذى طغى ،وبغى ، وتكبر وتجبر على وجه هذه الأرض ،فناسبه العذاب بأن خسف به وبداره الأرض التى اختال فوقها وتكبر.

وقوله تعالى: "وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون"جاءت صياغته محكمة ،عُرِفَ فيها عجز الآية من أولها ،فقوله "يظلمهم" إرصاد دال على أن عجز الآية من مادة الظلم إذ لا معنى لأن يقال:فى غير القرآن –مثلا– وما كان ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم ينفعون ،أو يمنعون من الهلاك،أو غير ذلك،لأن الغرض هو نفى أن يكون الله ظلم العباد،ومن ثم جاء إثبات ظلمهم لأنفسهم ،وهذا يسميه البلاغيون"الإرصاد" وسماه قدامة والعسكرى "التوشيح" والإرصاد عند ابن الأثير،والخطيب والعلوى ،ولم يذكره السكاكى ،وقد عرفه الخطيب بقوله:"أن يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل على العجز إذا عرف الروى".(٤٧)

وطبيعة أسلوب الإرصاد أو التسهيم–كما يسميه البعض– الذى يؤدى مثل ذلك الغرض الكائن فى الآية وهو نفى أن يكون من الله ظلم للعباد وإثبات ظلمهم لأنفسهم،أن يدل أوله على آخره،وسابقه على لاحقه،وقد روى أنه لما بلغت قراءة النبى(ﷺ) ثم أنشأناه خلقاً آخر" قال عبد الله بن أبى سرح: "فتبارك الله أحسن الخالقين" فقال النبى(ﷺ) كذلك أنزلت (٤٨)، أى أن هذا الأمر مركوز فى طباع العرب،وجزء من لغتهم ،حتى إن بعضهم اشترط لحسن الكلام أن يكون فى صدره ما يدل على الحاجة، يقول عبد الله بن المقفع:"... ليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك،كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى إذا سمعت صدره عرفت قافيته".(٤٩)

٥–جملة إسمية فيها المسند إليه مفرد ،والمسند جملة إسمية،أو جملة فعلية أو مفرد:

مثل قوله تعالى﴿ الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ (سورة القارعة ١:١١) .

---

(٤٧) انظر الصناعتين ص(٣٧٥) والإيضاح ٦/٢٤ ،والصبغ البديعى ص(٤٧٢).

(٤٨) السبكى ٤/٣٠٨ شروح التلخيص .

(٤٩) البيان والتبيين ١/٩٩٤ .

ارتبطت هذه السورة بما قبلها ،لأنه تعالى لما ختم السورة المتقدمة "العاديات" بقوله "إن ربهم بهم يومئذ لخبير"فكأنه قيل وما ذاك اليوم؟فقيل هى القارعة.

والقَرْعُ هو الضرب بشدة،ومنه قرع الباب ،أى طرقه بشدة،وقَارَعَ الأبطالُ ضرب بعضهم بعضاً بالسيوف فى الحرب،وقارع القومُ:ضربوا القرعة،وتقارع القوم بالرماح أو السيوف،تطاعنوا ،أو تضاربوا [٥٠]،واتفق العلماء على أن المقصود بالقارعة :اسم من أسماء يوم القيامة كالحاقة،والطامة،والصاخة،والغاشية ، وسميت بذلك لأنها تقرع الناس بالأهوال ،والإفزاع،وذلك فى السماوات بالانشقاق والانفطار، وفى الشمس والقمر بالتكور،وفى الكواكب بالانتثار،وفى الجبال بالدك والنسف،وفى الأرض بالطى والتبديل،وأنها أيضاً تقرع أعداء الله بالعذاب والخزى والنكال.

وقوله تعالى: "ما القارعة"مبتدأ وخبره،خبر للمبتدأ الأول"القارعة"،وكان مقتضى الظاهر أن يقال فى غير القرآن:"القارعة ما هى"أى شىء هى فأقيم المظهر مقام المضمر تفخيما لشأن ذلك اليوم،وما يحدث فيه من أهوال جسام،وتعظيماً لهول تلك الأحداث.

وفى قوله تعالى"وما أدراك ما القارعة"معناه:لا علم لك بكنهها،لأنها فى الشدة بحيث لا يبلغها وهْم أحد،ولا فهمه،وكيفما قدرته فهو أعظم من تقديرك كأنه تعالى قال:قوارع الدنيا فى جنب تلك القارعة كأنها ليست بقوارع،ونار الدنيا فى جنب نار الآخرة كأنها ليست بنار ،ولذلك قال فى آخر السورة:"نار حامية" تنبيهاً على نار الدنيا فى جنب تلك ليست بحامية،وصار آخر السورة مطابقاً لأولها من هذا الوجه.[٥١]

و"ما"الأولى مبتدأ أول و"ما"الثانية مبتدأ ثان،و"القارعة"خبر الثانى والجملة فى موضع نصب بـ"أدراك"، و"أدراك" وما اتصل به خبر عن"ما"الأولى، وفى الفعل "أدراك"ضمير يعود على المبتدأ الأول "ما"،والاستفهام فى "ما"الأولى والثانية لبيان هول أحداث ذلك اليوم،والدلالة على عظمها،والتعجب ممن يغفل عنها،أو يستهين بها.[٥٢]

ولما كانت الجمل فى قوله"القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة" . وهذا هو الشاهد – معنية ببيان هول ذلك اليوم العظيم،وما فيه من أحداث جسام ،أتت فى بناء متناسق،وتركيب

---

(٥٠) انظر اللسان مادة"قرع".

(٥١) انظر تفسير ابن كثير ٥٤٣/٤ .والتفسير الكبير١٦/٦٠٠ .

(٥٢) انظر التبيان فى إعراب القرآن ٢/٢٧٦،٢٩٣.

متوازٍ ،تكرر فيه كثير من ألفاظ تلك الجمل ،وتماثل هذا المكرر فى البناء النحوى–مبتدأ أول ،مبتدأ ثان وخبره خبر المبتدأ الأول– والبلاغى – كالاستفهام، ووضع المظهر موضع المضمر– فترابطت تلك الجمل بهذا البناء والتركيب وتعاضدت فى تصوير أهوال القارعة وأحداثها العظيمة التى فاقت كل تصور وعلم.

ونظير هذه الآيات قوله تعالى:﴿ الحَاقّة مَا الحَاقّة ومَا أدرَاك مَا الحَاقّة﴾ سورة الحاقة(١–٣) ،ويقال فى بلاغتها ، ما قيل هنا ،قال المحققون:إن قوله تعالى: "القارعة ما القارعة "أشد من قوله تعالى: "الحاقة ما الحاقة"لأن النازل آخرا لا بد وأن يكون أبلغ لأن المقصود منه زيادة التنبيه،وهذه الزيادة لا تحصل إلا إذا كانت أقوى،"وأما بالنظر إلى المعنى فالحاقة أشد لكونه راجعاً إلى معنى العدل ،والقارعة أشد لما أنها تهجم على القلوب بالأمر الهائل"[٥٣]

وقوله تعالى:"يوم يكون الناس كالفراش المبثوث،وتكون الجبال كالعهن المنفوش"قال صاحب الكشاف :"الظرف نصب بمضمر دلت عليه القارعة ،أى تقرع يوم يكون الناس كذا".[٥٤]

ووصف الله تعالى ذلك اليوم بأمرين، فى نسق متشابه،وتركيب توازى صرفياً، ونحوياً،وبلاغياً،ودلالياً،الأمر الأول :كون الناس فيه "كالفراش المبثوث"،قال الزجاج: الفراش هو الحيوان الذى يتهافت فى النار ،وسمى فراشاً لتفرشه وانتشاره.

ثم إنه تعالى شبه الخلق وقت البعث هاهنا بالفراش المبثوث ،قال تعالى :﴿ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ (القمر:٧) .

"أما وجه التشبيه بالفراش ،فلأن الفراش إذا ثار لم يتجه لجهة واحدة،بل كل واحدة منها تذهب إلى غير جهة الأخرى ،يدل هذا على أنهم إذا بعثوا فزعوا ، واختلفوا فى المقاصد على جهات مختلفة غير معلومة،والمبثوث المفرق ،يقال بثّه إذا فرّقه،وأما وجه التشبيه بالجراد فهو فى الكثرة"[٥٥] .

إذن فالله–سبحانه وتعالى– شبه الناس فى وقت البعث بالجراد المنتشر ،وبالفراش المبثوث،لأنهم فى ذلك اليوم يموج بعضهم فى بعض كالجراد المنتشر ،والفراش المبثوث ، وذكر الإمام الرازى فائدتين للتشبيه بالفراش نقلهما عن العلماء:

---

(٥٣) انظر مفاتيح الغيب ١٦/٦٠٠ .

(٥٤) نفسه ص(٦٠٠)

(٥٥) نفسه ص ٦٠١ .

الأولى:ما روى أنه عليه السلام قال :"الناس عالم ومتعلم،وسائر الناس همج رعاع "فجعلهم الله فى الأخرى كذلك :"جزاء وفاقا "(النبأ:٢٦).

الثانية:أنه تعالى إنما أدخل حرف التشبيه ،فقال"كالفراش "لأنهم يكونون فى ذلك اليوم أذل من الفراش،لأن الفراش لا يعذّب ،وهؤلاء يعذّبون ونظيره،"كالأنعام بل هم أضل " (الأعراف:١٧٩).[٥٦]

الأمرالثانى: من صفات ذلك اليوم،كون الجبال فيه"كالعهن المنفوش" والعهن الصوف ذو الألوان ،والنفش فك الصوف حتى ينتفش بعضه عن بعض ،وفى قراءة ابن مسعود:"كالصوف المنفوش"[٥٧]، ووجه الشبه الخفة والضعف بإزالة أجزائه وتأليفه وتركيبه .

وناسب التشبيه بالعهن المنفوش الجبال،لأنها مختلفة الألوان كما أخبر تعالى فقال ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (فاطر:٢٧) ، فكانت بتفريق أجزائها ،وإزالة التأليف والتركيب عنها مشابهة للصوف الملون بالألوان المختلفة إذا جعل منفوشاً.

وفى الجمع بين حال الناس وحال الجبال فى ذلك اليوم،إشارة وتنبيه على أن تأثير تلك القرعة فى الجبال هو تصييرها كالعهن المنفوش،فكيف يكون حال الإنسان عند سماعها ؟!!.

وكان يمكن أن يقال فى غير القرآن:يوم يكون الناس كالفراش المبثوث والجبال كالعهن المنفوش،إلا أن البلاغة فى صياغة القرآن وهيئته وتركيبه،لأن التكرير فى مثل هذا المقام أبلغ فى التحذير والتخويف فضلا عن إحداث هذا التوازى فى التركيب، والتشابه فى النسق ،بين الجملتين"يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش"فالفعل الناقص تكرر فيهما ،مصاغاً فى المضارع،"يكون–تكون"بعد الظرف "يوم" الظاهر فى الأول ،والمقدر فى الثانى،واسم هذا الفعل بعده مباشرة،معرف بالألف واللام"الناس–الجبال"وهو مشبه،والخبر شبه جملة "كالفراش المبثوث– كالعهن المنفوش"مشبه به مقيد بالصفة "المبثوث–المنفوش"وأداة التشبيه "الكاف".

إن هذا التشابه فى البناء ،والتوازى فى التركيب،إنما كان لاتحاد القصد،ووحدة الهدف وهو بيان صفتين من صفات أهوال يوم القارعة ،وتحقيقاً للزجر والتخويف جمع فيهما بين

---

(٥٦) التفسير الكبير ١٦/٦٠٢ .

(٥٧) نفسه ص (٦٠٢).

الإنسان المستهدف بهذا الزجر ،والجبال التى تفوق قوته ملايين المرات،فجعلها وسيلة لهذا التخويف،وذلك الزجر.

وهذه المناسبة هى التى سوغت للعطف بين الجملتين ،وهو ما يسمى بالتوسط بين الكمالين.

ولمّا وصف تعالى يوم القيامة فى مشهدين من مشاهدها،قسم الناس فيه-أيضاً-قسمين فقال:" فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ "فى تركيب متوازٍ_أيضا-تكررت فيه "أما"التى هى بمعنى "مهما" الشرطية ولا تعمل عملها،ويكون فيها معنى التفصيل زائداً لذلك، والمعنى :مهما يكن من شىء فمن ثقلت موازينه هو فى عيشة راضية،وكذلك فى الجملة الثانية،ودخلت الفاء فى جوابها " فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ – فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ " كما تدخل فى أجوبة الشرط لما فيها من معنى "مهما "وفيها اختصاص بالتفصيل-كما قلت-[٥٨] ، وتكرر-أيضا- اسم الموصول "مَنْ"وصلته فى الجملة الأولى"ثقلت"وفى الثانية"خفت"بينهما تناسب بالتضاد الذى أبرز المعنى ووضحه،وتكرر"موازينه"لأنه الآلة التى توزن بها أعمال كل فريق،أو المقصود به الأعمال نفسها،وتكررت الفاء الواقعة فى جواب "أما"وهو جملة إسمية فى كلٍ،إلا أن بينهما تغايراً طفيفاً عائداً إلى طبيعة التغاير بين الفريقين فى الجزاء والثواب .

هذا التوازى الذى كان بين الجملتين،راجع إلى ارتباط المعنى فيهما،وهو الحديث عن صنفى الناس يوم القارعة،ومن ثم كان هذا التركيب المتوازى وأيضاً العطف.

وقوله تعالى: "فهو فى عيشةٍ راضية" العيشة مصدر بمعنى العيش،كالخيفة بمعنى الخوف،وإسناد الرضا إلى ضمير العيشة،إنما كان على سبيل المجاز العقلى ،لعلاقة المفعولية،لأن العيشة فى الحقيقة ليست راضية ، وإنما هى مرضية،والراضى هو صاحبها،وأصل التعبير :عيشة راضى صاحبها،فأسند الرضا إلى العيشة لتلبس الرضا بها من حيث وقوعه عليها ويفيد هذا الإسناد أن العيشة ليست مرضية فحسب-كما هو حقيقة التعبير- وإنما العيشة أيضا راضية، والعيشة هى النعم التى يتقلب فيها أهل الجنة ورضاها

---

(٥٨) انظر رصف المبانى فى شرح حروف المعانى للمالقى ص(١٨١)تحقيق د/أحمدالخراط-ط-ثانية-دار القلم-دمشق١٩٨٥م

–أى النعمة– يعنى أنها دائمة باقية تألف صاحبها،ويألفها صاحبها، وعلى هذا فإن تفسير الزجاج لها بأن المعنى :عيشة ذات رضا يرضاها صاحبها، وهى كقولهم:لابن،وتامر،أى :ذو لبن،وذو تمر لم يكن تفسيراً دقيقاً لفوات البلاغة به التى قلناها.(٥٩)

وقوله تعالى"فأمه هاوية" الهاوية من أسماء النار،وكأنها النار العميقة يهوى أهل النار فيها مهوى بعيداً،والمعنى فمأواه النار،وقيل للمأوى أمّ على سبيل التشبيه بالأم التى لا يقع الفزع من الولد إلا إليها،وقيل المقصود بأمه :أم رأسه لأنهم–أى أهل النار– يهوون فى النار على رؤوسهم.

وهِيَهْ فى قوله تعالى:"وماأدراك ماهيه"ضمير الداهية التى دل عليها قوله"فأمه هاوية"،أو ضمير"هاوية"والهاء للسكت،فإذا وصل جاز حذفها،واختيار الوقف بالهاء لاتباع المصحف.

وقوله تعالى:"نار حامية"معناه أن سائر النيران بالنسبة إليها كأنها ليست حامية،وهذا القدر كافٍ فى التنبيه على قوة سخونتها.(٦٠)

" نعوذ بالله منها ومن جميع أنواع العذاب ونسأله التوفيق وحسن المآب "

٦–جملة إسمية منسوخة فيها المسند إليه مفرد والمسند مفرد أو شبه جملة،أو جملة:

مثل قوله تعالى:﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾ (يوسف:٨٥) .

جاءت هذه الآية بعد أن اتهم أبناء يعقوب–عليه السلام–أخاهم بنيامين بالسرقة،وعملوا جاهدين من أجل أن يصدقهم أبوهم،قال تعالى: ﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ سورة يوسف٨١،٨٢، فلم يصدقهم فيما ذكروا كما في واقعة يوسف –عليه السلام–،فقال تعالى ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ سورة يوسف، فعند ذلك رق الأبناء لحال أبيهم ،وقالوا له على سبيل الرفق به ، والشفقة عليه،"تالله تفتؤ تذكر يوسف" أى لا تفارق تذكر يوسف،أو لا تزال تذكره،وعن مجاهد:لا تفتر من حبة كأنه جعل الفتور والفتوء

---

(٥٩) التفسير الكبير١٦/٦٠٤ .

(٦٠) نفسه ص(٦٠٤).وتفسير ابن كثير ٤/٥٤٤ ..

أخوين[٦١] ، والأصل:لا تفتأ تذكر يوسف﴿ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ ، وجاز حذف النفى "لا"هنا لأن جواب القسم فى الإثبات يجيء باللام والنون نحو:والله لتفعلن،فلما كان بغير اللام والنون عرف أن كلمة "لا "مضمرة[٦٢]، إذن فاللغة فى معظم دلالتها تعتمد على السياق،وكثيراً ما أتى الشعراء بالجمل مثبتة وهم يريدونها منفية اعتماداً على السياق وفهم السامع له،ومن ذلك قول امرئ القيس:

فقلت يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالى

وهو يريد:يمين الله لا أبرح،ولكن لما كثر فى كلامهم استعمال هذا الفعل مع النفى واشتهر بذلك حذفه اعتماداً على ذلك.

"قال ابن أبى الأصبع:إنه سبحانه أتى بأغرب ألفاظ القسم بالنسبة إلى أخواتها،فإن والله وبالله أكثر استعمالاً وأعرف عند الكافة من تالله،لما كان الفعل الذى جاور القسم أغرب الصيغ التى فى بابه،فإن كان وأخواتها أكثر استعمالاً من تفتأ وأعرف عند الكافة،ولذلك أتى بعدها بأغرب ألفاظ الهلاك وهى لفظة الحرض".

والحرَضُ مالا يعتد به،وقال الفراء فى الآية:"يقال:رجل حرَضٌ وقوم حرَضَ وامرأة حرَضٌ، يكون موحّداً على كل حال ،الذكر والأنثى والجمع فيه سواء،...وأما الحَرَضُ فترك جمعه لأنه مصدر بمنزلة دَنَفٍ وضنىً،قومٌ دَنَفٌ وضَنىً،ورجل دنفٌ وضنىً،وقال الزجاج:من قال رجل حرَض فمعناه:ذو حرضٍ،ولذلك لا يثنى ولا يجمع،...وكذلك كل مانعت بالمصدر "[٦٣]

وقيل :الحرَض:الذى أذابه الحزن أو العشق وهو فى معنى مُحْرَض.[٦٤]

ومن ثم فوصف الرجل بأنه حرَضٌ إما أن يكون لإرادة أنه ذو حرض فحذف المضاف أو لإرادة أنه لما تناهى فى الفساد والضعف فكأنه صار عين الحرض، ونفس الفساد، وهذا هو المراد في الآية والله أعلم.

وقوله:"أو تكون من الهالكين"أى من الأموات،ومعنى الآية:أنهم قالوا لأبيهم إنك لا تزال تذكر يوسف بالحزن والبكاء عليه،حتى تصير بذلك إلى مرض لا تنتفع بنفسك معه،أو تموت من الغم،وقد تدرجوا فى مآل أبيهم إن بقى على تلك الحالة، وجعلوه مراحل يفضى بعضها إلى

---

(٦١) انظر تفسير القرآن ٤٨٨/٢ والتفسير الكبير ١٣٣/٩ .

(٦٢) انظر رصف المبانى ص(٣٣٠).

(٦٣) انظر اللسان مادة"حرض" .

(٦٤) نفسه.

بعض،وكأنهم قالوا:أنت الآن فى بلاء شديد ونخاف أن تحصل ما هو أزيد منه وأقوى ،قاصدين بذلك منعه عن كثرة البكاء والأسف،وكان التعبير عن هذا المعنى فى بناء تناسق تركيبه وتوازى ،بتكرار الفعل الناسخ"تكون" المعمول لـ"أن"المضمرة بعد "حتى"الغائية والصريحة فى الجملة الأولى"حتى تكون حرضاً"والضمنية فى الجملة الثانية"أو تكون من الهالكين"،واسم الفعل الناسخ فى الجملتين ضمير المخاطب المستتر تقديره "أنت " "مسند إليه"وخبره فى الجملة الأولى "حرضاً"مسند مفرد،وفى الجملة الثانية"من الهالكين"مسند شبه الجملة.

هذا التغاير الذى كان فى مسند الجملتين"حرضا– من الهالكين"إنما كان فى ظاهر اللفظ،لأن تنكير "حرضا" كان وسيلة استعان بها أبناء نبى الله يعقوب عليه السلام– وهم ينصحونه بهجر تذكر يوسف والبكاء عليه حتى لا يمرض مرضاً غير محدود ولا معروف،وهذا أدخل فى باب التخويف ومن ثم ترك تذكر يوسف والتحزّن عليه، وأيضا تعريف"الهالكين" كان أدخل فى باب التخويف والاستماع إلى النصيحة،لأنهم يخوفونه بشىء هو يعرفه ويعاينه،ويرى أثره ببصره وبصيرته،ألا وهو الموت،وأثره محمول على الأعناق من الجميع،ومن ثم اتّحد التنكير ،والتعريف فى الجملتين فى الهدف ،وبيان المراد.

إذن تَوَازى التركيب فى الجملتين،وتَشَابَها فى النسق،لأن المقصود فيهما واحد،والمعنى متّحد،وهو تخويف أبناء سيدنا يعقوب لأبيهم بأمرين يترتب الثانى منهما على الأول ،فالمرض الشديد يؤدى إلى الموت والهلاك ، والله أعلى، وأعلم بمراده.

*ومثل–أيضاً–قوله تعالى:﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ سورة آل عمران.

بعد أن أمر الله عباده المؤمنين بالتقوى فى الآية السابقة فقال:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ سورة آل عمران،أمرهم فى هذه الآية بالتمسك بالاعتصام بما هو كالأصل لجميع الخيرات والطاعات،وهو الاعتصام بحبل الله فقال:﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ﴾،والمقصود بحبل الله،قيل عهد الله كما قال في الآية بعدها ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ سورة آل عمران، أي بعهد وذمة ، وقيل:بحبل

من الله يعنى القرآن كما فى حديث الحارث الأعور عن على مرفوعا فى صفة القرآن"هو حبل الله المتين، وصراطه المستقيم"،وروى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى(ﷺ)أنه قال:"إنى تارك فيكم الثقلين:كتاب الله تعالى حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتى أهل بيتى "،وقيل إنه دين الله،وقيل:هو طاعة الله، وقيل:هو إخلاص التوبة،وقيل :الجماعة،لأنه تعالى ذكر عقيب ذلك قوله تعالى:"ولا تفرقوا"، وهذه الأقوال كلها متقاربة(٦٥).

ووجه التسمية فى هذا كله،أنه لما كان النازل فى البئر يعتصم بحبل تحرزاً من السقوط فيها،وكان كتاب الله وعهده ودينه وطاعته لجماعة المؤمنين حرزاً لصاحبه من السقوط فى قعر جهنم جعل ذلك حبلاً لله على سبيل الاستعارة التصريحية،وأمروا بالاعتصام به واللجوء إليه.

وقوله تعالى:"ولا تفرقوا" يعد تأكيداً لقوله:"واعتصموا بحبل الله" باعتباره أمراً بالجماعة،وهنا نهى عن التفرقة،وعلى هذا الوجه تكون الجملتان متصلتين فى المعنى ولا حاجة للواو بينهما،بناء على الظاهر،ولكن وراء هذه الواو المذكورة سرّ،ومغزى يقصده الكلام،لأن الواو تقتضى المغايرة ومن ثم تميز المعنى الذى دخلت عليه، وبرز لأهميته والتأكيد عليه وهو عدم التفرقة.

وقد وردت الأحاديث المتعددة بالنهى عن التفرق والأمر بالاجتماع، والائتلاف، كما فى صحيح مسلم عن أبى هريرة(رضي الله عنه) أن رسول الله(ﷺ)قال:"إن الله يرضى لكم ثلاثا ويسخط لكم ثلاثاً يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا،وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ، ويسخط لكم ثلاثا : قيل وقال ، وكثرة السؤال وإضاعة المال ".

وقوله تعالى : واذكُروا نِعْمَة الله عَلَيْكُم إذ كنتم أعداء فألَّف بيْنَ قُلُوبِكمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا } هذا السياق فى شأن الأوس والخزرج فإنه قد كان بينهم حروب كثيرة فى الجاهلية،وعداوة شديدة وضغائن وإحن ،طال بسببها قتالهم،فلما جاء الله بالإسلام فدخل فيه من دخل منهم صاروا إخوانا متحابين بجلال الله،متواصلين فى ذات الله، متعاونين على البر والتقوى.(٦٦)

---

(٦٥) انظر نفسير القرآن العظيم١/٣٨٨ ، والتفسير الكبير ٤/٣٧١ .

(٦٦) تفسير ابن كثير ١/٣٨٩ .

وأصل الأخ فى اللغة من التوخى وهو الطلب ،فالأخ مقصده مقصد أخيه والصديق مأخوذ من أن يصدق كل واحد من الصديقين صاحبه ما فى قلبه ولا يخفى عنه شيئا.(٦٧)

وتقديم الجار والمجرور فى قوله:"فأصبحتم بنعمته إخوانا"يدل على أن المعاملات الحسنة الجارية بينهم بعد الإسلام إنما حصلت من الله،لأنه تعالى خلق تلك الداعية فى قلوبهم،وكانت الداعية نعمة من الله،"وما بكم من نعمة فمن الله".

وقوله تعالى: "وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها"أى كنتم مشرفين بكفركم على جهنم ،لأن جهنم مشبهة بالحفرة التى فيها النار فجعل استحقاقهم للنار بكفرهم كالإشراف منهم على النار ،والمصير منهم إلى حفرتها،فبيّن تعالى أنه أنقذهم من هذه الحفرة ، وقد قربوا من الوقوع فيها وذلك بهدايتهم إلى الإسلام.

وشفا الشىء حرفه،مقصور ،مثل شفا البئر ،والجمع الأشفاء،ومنه يقال:أشفا على الشىء إذا أشرف عليه كأنه بلغ شفاه أى حده وحرفه.(٦٨)

وقوله تعالى: "فأنقذكم منها"أى خلصكم ونجاكم بأن هداكم للإيمان والضمير هنا يعود إلى الحفرة،أو راجع إلى النار ،لأن القصد الإنجاء من النار لا من شفا الحفرة، الذى هو مجرد تشبيه لجهنم يقرب الصورة من الذهن،وفيه لطيفة أخرى وهى أنهم لو ماتوا على الكفر لوقعوا فى النار،فمثلت حياتهم التى يتوقع بعدها الوقوع فى النار بالقعود على حرفها،وهذا فيه تنبيه على تحقير مدة الحياة ،فإنه ليس بين الحياة وبين الموت المستلزم للوقوع فى الحفرة إلا ما بين طرف الشىء وبين ذلك الشىء.

والكاف فى قوله تعالى:﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ سورة آل عمران،فى موضع نصب ،أى مثل البيان المذكور يبين الله لكم سائر الآيات لكي تهتدوا بها ،و"لعل"هنا للتعليل ،إلا أن معنى الترجي باق فيها ،وإلاّ لجىء بأداة صريحة فى التعليل كاللام وكي مثلاً،وذلك–والله أعلم– ليكون المعنى أنّا فعلنا فعلاً يشبه فعل من يترجى ذلك.

ولماّ كانت نعم الله على الخلق إما دنيوية،وإما أخروية ،فقد جمع الله–عز وجل–بينهما فى هذه الآية،أما النعمة الدنيوية فهى فى قوله تعالى: ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم

---

(٦٧) انظر اللسان مادة"أخو".

(٦٨) اللسان مادة "شفا" .

بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ ، وأما النعمة الأخروية فهى فى قوله تعالى:﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾.

وكان التعبير عن هاتين النعمتين فى تركيب متوازٍ،ونسق متشابه،تأمل كيف كان هذا التوازي بتكرار الفعل الناقص "كنتم"فيه اسم ضمير الخطاب المتصل والفاء التي رتبت الأحداث بلا تراخ ولا مهلة،وبناء الكلام فى جملتين ترتبت الثانية منهما على الأولى،وتكرار التنكير فى خبر "كان"و"أصبح" فى قوله تعالى:﴿ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إخواناً﴾ ودلالته على أنهم بلغوا فى العداوة والبغضاء مبلغاً غير محدود،ولكن بفضل الله وبرحمته وهدايتهم إلى الإيمان صارت تلك العداوة وذلك التشرذم أُخُوَّةً غير محدودة ،ومن ثم وقع الفعل "أصبح"فى هذا السياق موقعه لدلالته على هذا الانتقال، والتحويل من حال إلى حال،وأسهم–أيضاً– الطباق بين "أعداء،إخواناً" فى تصوير حالة التحول والانتقال ،وتأمل التقابل الذى كان بين دلالة "على"ودلالة "منها"فى قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ فقد يظنّ أن بين الجملتين تعارضاً، لأن الأولى تفيد أنهم كانوا على مشارف الحفرة،وفوقها،والثانية–بناء على الظاهر–تفيد أنهم كانوا فيها فأنقذهم الله منها ،وغفلت هذه النظرة أن سياق الكلام كان فى التذكير بالنعمة،وأن هؤلاء كانوا على العصيان والطغيان الموجبين للنار مع الاستمرار عليهما،ولولا فضل الله ورحمته بالهداية والتوفيق، لكانوا فيها،فنزلوا منزلة من هو فيها من حيث كانوا مستحقين لدخولها.

وكان الكلام عن النعمتين تفصيلاً للمجمل في قوله:"واذكروا نعمة الله عليكم" وجمال هذا الأسلوب لا يخفى فى تهيئة النفس بالتشويق والإثارة،لتلقى المفصل الذى أزال خفاء المجمل من هذه النفس المثارة،والمشوقة.

*ومثل–أيضاً– قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ سورة آل عمران.

يخبر الله–تعالى –عن اليهود–لعنهم الله–أن منهم فريقاً يحرفون الكلم عن مواضعه ويبدلون كلام الله–عز وجل– ويزيلونه عن المراد به ليوهموا الجهلة أنه فى كتاب الله كذلك،وينسبونه إلى الله وهو كذب على الله،وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا فى ذلك كله.

وهذه الآية معطوفة على ما قبلها،ودالة على أنها–أى السابقة–نازلة فى اليهود قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ سورة آل عمران .

و"من"فى قوله تعالى: "وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب " لبيان الجنس ،أو للتبعيض،وكثيرا ما تقرب التى للتبعيض من التى لبيان الجنس حتى لا يفرّق بينهما إلا بمعنى خفى ،وهو أن التى للتبعيض تقدربـ"بعض" والتي لبيان الجنس تقدر بتخصيص الشىء دون غيره(٦٩)، واللّيُّ: عبارة عن عطف الشىء وردّه عن الاستقامة إلى الاعوجاج،يقال : لويت يده والتوى الشىء إذا انحرف،والتوى فلان علىّ إذا غير أخلاقه عن الاستواء إلى ضدّه،ولوى لسانه عن كذا إذا غيّره،ولوى فلان عن رأيه إذا أماله عنه (٧٠)، قال القفال فى معنى الآية:إن منهم فريقاً يعمدون إلى اللفظ فيحرفونه فى حركات الإعراب تحريفا يتغير به المعنى ،وهذا كثير فى لسان العرب فلا يبعد مثله فى العبرانية،فلما فعلوا مثل ذلك فى الآيات الدالة على نبوة محمد (ﷺ) من التوراة كان ذلك هو المراد من قوله تعالى:"يلوون ألسنتهم"(٧١).

ونقل عن ابن عباس–رضى الله عنهما–أنه قال :إن النفر الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم كتبوا كتاباً شوشوا فيه نعت محمد(ﷺ) وخلطوا بالكتاب الذى كان فيه نعت محمد(ﷺ)ثم قالوا :"هذا من عند الله".البقرة(٧٩).

والضمير فى قوله تعالى "لتحسبوه من الكتاب"يعود إلى ما دل عليه قوله تعالى: "يلوون ألسنتهم"وهو المحرّف.

قال وهب بن منبه:"إن التوراة والإنجيل كما أنزلهما الله تعالى لم يغير منهما حرف،ولكنهم يضلون بالتحريف والتأويل وكتب كانوا يكتبونها من عند أنفسهم "ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله" فأما كتب الله فإنها محفوظة لا تحول".

---

(٦٩) انظر رصف المبانى ص(٣٨٩).

(٧٠) اللسان مادة "لوى".

(٧١) التفسير الكبير ٤/٢٩٣،٢٩٢.

وقد علق ابن كثير على قول وهب فقال:"فإن عنى وهب ما بأيديهم من ذلك فلا شك أنه قد دخلها التبديل والتحريف والزيادة والنقص... وأما إن عنى كتب الله التى هى كتبه من عنده فتلك كما قال محفوظة لم يدخلها شيء"(٧٢) .

وقد جاء بيان حال هؤلاء المحرفين لألفاظ الكتاب ،أو المشوشين لدلالة تلك الآيات على نبوة سيدنا محمد(ﷺ) بسبب إلقاء الشكوك والشبهات فى وجوه الاستدلالات، وإبراز كذب هؤلاء فى أسلوب توازى تركيبه،وتشابه نسقه،من خلال التكرار فى قوله تعالى:﴿ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ} [وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ]﴿٧٨﴾ سورة آل عمران ، وأبرز سمات هذا التوازى التضاد الذى بيّن أن ما يحاولون أن يشعروا الناس أنه من الكتاب ،ليس من الكتاب وما قالوا عنه إنه من عند الله ليس من عند الله،فأوضح التوازى حال الكفار من أهل الكتاب وجراءتهم على الله وقساوة قلوبهم ويأسهم من الآخرة(٧٣)، فأخذوا يحرّفون الكتاب ،وقد حاولوا أن يشعروا الناس أن ما حرفوه هو من الكتاب ،بأسلوب خفى غير صريح ،حتى يدخل على الناس أنه جزء من الكتاب ، فيكتسب قدسية وإجلالاً،ثم جاهروا بالقول إنه من عند الله ليؤكدوه ويلحوا على ذلك.

إن التوازى فى تركيب القرآن الكريم والتشابه فى نسقه لمشير إلى ترابط المعنى فى جمل هذا الكلام العظيم،تأمل التدرج الذى كان بين معانى الجمل فى الآية،حيث حاولوا إفهام الناس ضمنا أنه من الكتاب لعله يدخل عليهم ،ثم صرحوا مؤكدين بأنه من عند الله ،وسجّل الله عليهم هذا الكذب،زيادة فى التشنيع عليهم،وأنهم بلغوا من الوقاحة أنهم لا يعرضون ،ولا يورون ،وإنما يصرحون بأن ما حرفوه فى الكتاب هكذا كان ،وتكرّر تضاد السلب فى الكلام "وما هو" لتأكيد هذا النفى ،وإظهار كذبهم وفجورهم.

*ومثل–أيضا–قوله تعالى : ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾} سورة الإسراء.

---

(٧٢) تفسير ابن كثير ٣٧٦/١ .

(٧٣) الكشاف ٣٧٩/١ .

بعد أن عدّد الله–تعالى– فى الآيات المتقدمة أقسام نعمه على خلقه ،وأتبعها بذكر درجات الخلق فى الآخرة ،وشرح أحوال السعداء ،أردفه بما يجرى مجرى تحذير السعداء من الاغترار بوساوس أرباب الضلال،والانخداع بكلامهم المشتمل على المكر والتلبيس،فقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا﴾.

وعن سبب نزول هذه الآية يقول ابن عباس –رضى الله عنهما –:خرج أمية بن خلف وأبو جهل ابن هشام ورجال من قريش،فأتوا رسول الله(ﷺ) فقالوا:يا محمد ، تعال نمسح بآلهتنا وندخل معك فى دينك ،وكان يحب إسلام قومه فرقَّ لهم فأنزل الله –تعالى– "وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك"إلى قوله"نصيراً".(٧٤)

وأصل الكلام"كادوا يفتنونك"ودخلت إن واللام للتأكيد،وإن مخففة من الثقيلة ، واللام هى الفارقة بينها وبين النافية.

والمعنى أن الشأن أنهم قاربوا أن يفتنوك ،أى يخدعوك فاتنين،وأصل الفتنة الاختبار،يقال فتن الصائغ الذهب إذا أدخله النار،وأذابه لتمييز جيده من رديئه ثم استعملوه فى كل من أزال الشىء عن حدّه وجهته فقالوا فتنه على سبيل المجاز المرسل ،وعلاقته الإطلاق والتقييد وهؤلاء الكفار حاولوا جاهدين إن يزيلوا رسول الله(ﷺ) ويصرفوه عن الذى أوحى إليه ربه وهو القرآن،والمعنى عن حكمه،وذلك لأن فى إعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن.

وقوله تعالى:" لتفترى علينا غيره" أى غير ما أوحينا إليك ،وقوله تعالى:"وإذا لاتخذوك خليلا" أى لو فعلت ما أرادوا لاتخذوك خليلاً وأظهروا للناس أنك موافق لهم على شركهم وراضٍ به.

وقوله تعالى:"ولولا أن ثبتناك"أى على الحق بعصمتنا إياك "لقد كدت تركن إليهم" أى تميل إليهم شيئا قليلاً،وقوله تعالى : " شيئا " أي ركونا قليلا ، قال ابن عباس : يريد حيث سكت عن جوابهم ، وقوله تعالى:"إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات" أى ضعف عذاب الحياة،وضعف عذاب الممات،يريد عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، والضعف عبارة عن أن يضم إلى الشىء مثله ،وحسن إضمار العذاب هنا لما تقدم فى القرآن من وصف العذاب بالضعف فى قوله تعالى:﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ﴾ (صّ:٦١) ، وقوله تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ سورة الأعراف(٣٨).

---

(٧٤) انظر لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى ص (٢٧٤–٢٧٥).

والسبب فى تضعيف هذا العذاب أن أقسام نعم الله–تعالى– فى حق الأنبياء عليهم السلام أكثر فكانت ذنوبهم أعظم فكانت العقوبة المستحقة عليها أكثر ونظيره قوله تعالى: {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ ذَٰلِكَ ﴿٣٠﴾ سورة الأحزاب.

وقوله تعالى:﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سورة الإسراء ، قال قتادة :هم أهل مكة هموا بإخراج النبي(ﷺ) من مكة،ولو فعلوا ذلك ما أمهلوا،ولكن الله منعهم من إخراجه حتى أمره الله بالخروج ثمّ إنه قلّ لبثهم بعد خروج النبي(ﷺ) من مكة حتى بعث الله عليهم القتل يوم بدر ، وهذا قول مجاهد.(٧٥)

وقال ابن عباس:إن رسول الله(ﷺ) لما هاجر إلى المدينة حسدته اليهود وكرهوا قربه منهم فقالوا يا أبا القاسم إن الأنبياء إنما بعثوا بالشام وهى بلاد مقدسة وكانت مسكن إبراهيم ،فلو خرجت إلى الشام آمنا بك واتبعناك وقد علمنا أنه لا يمنعك من الخروج إلاّ خوف الروم،فإن كنت رسول الله،فالله مانعك منهم.(٧٦)

فعسكر رسول الله(ﷺ)على أميال من المدينة قيل بذي الحليفة حتى يجتمع إليه أصحابه ويراه الناس عازماً على الخروج إلى الشام لحرصه على دخول الناس فى دين الله فنزلت هذه الآية فرجع.(٧٧)

والأرض فى قوله تعالى:"ليستفزونك من الأرض "على القول الأول مكة ،وعلى القول الثاني: المدينة.

وقوله تعالى :"وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا" قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو عن عاصم"خلفك"بفتح الخاء وسكون اللام،والباقون"خلافك"وخلفك" "وخلافك"بمعنى بعْدك.(٧٨)

والآيات كلها تتضافر فى بيان تأييد الله–تعالى– رسوله(ﷺ) وتثبيته وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار ،وأنه تعالى هو المتولى أمره،ونصره،وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه، وحافظه وناصره،ومؤيده،ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناوأه فى مشارق الأرض ومغاربها.

---

(٧٥) انظر التفسير الكبير ١٠/١٥٥.

(٧٦) أسباب النزول ص(٢٧٦)

(٧٧) مفاتيح الغيب ١٠/١٥٥ .

(٧٨) انظر اللسان وأساس البلاغة مادة "خلف".

ونلحظ أن هذا المعنى جاء فى أسلوب توازى تركيبه ،وتناسق بناؤه وتوافق نظمه،وكان ذلك بتكرار "إن"المخففة من الثقيلة ،"وكاد" الدالة على قرب وقوع الخبر ، واسمها ضمير الجماعة، أو الخطاب "كادوا –كدت"واللام الفارقة فى خبرها الفعل المضارع"ليفتنونك– ليستفزونك"بعده الجار والمجرور "عن الذى أوحينا إليك– من الأرض "ثم لام التعليل المقترنة بالفعل المضارع "لتفترى علينا غيره–ليخرجوك" وأيضاً إذن بعدها الجملة المؤكدة،إما باللام فى"وإذاً لاتخذوك خليلاً"وإما بالقصر فى"وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا" .

أعد قراءة الآيات،وتأمل نظمها وتركيبها المتوازى الذى يؤكد تضامن معانيها فى إبراز تأييد الله–عز وجل–ورسوله(ﷺ) وتثبيته وعصمته من كيد الكائدين وحقد الحاقدين.

*ومثل أيضا–قوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ سورة يوسف.

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التى كان يوسف فى بيتها بمصر وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه فراودته عن نفسه أى حاولته على نفسه ودعته إليها وذلك أنها أحبته حباً شديداً لجماله وحسنه وبهائه فحملها ذلك على أن تجملت له"وغلّقت الأبواب" والسبب أن ذلك العمل لا يؤتى به إلا فى المواضع المستورة لا سيما إذا كان حراماً ومع قيام الخوف الشديد(٧٩) ،وجاء"غلّقت"بالتضعيف وعلى التكثير لأنها غلقت سبعة أبواب،ثم دعته إلى نفسه،وفيه أيضاً–دلالة على الإغلاق لتلك الأبواب بإحكام،وقد عرّف المسند إليه فى قوله: "وراودته التى هو فى بيتها"باسم الموصول للإشارة إلى زيادة تقرير الغرض المسوق له الكلام وهو تقرير نزاهة سيدنا يوسف– عليه السلام–وذكر امرأة العزيز بهذه الصلة المشيرة إلى كونه فى بيتها مما يقرر هذا الغرض،فقد راودته امرأة هو فى بيتها وهى متمكنة منه فى كل أوقاته من ليل ونهار تلح وتراود ولكنه –عليه السلام– استعصم وهذا يدل على غاية الطهر والعفاف ولو قال:وراودته زليخا ،أو امرأة العزيز لفات كل ذلك ولم تجد منه شيئاً،فضلاً عن أن فى ذكر الصلة – هنا أيضا – استهجان التصريح بالاسم.

ثم قال تعالى:"وقالت هيت لك"قال الواحدى :هيت لك اسم للفعل نحو: رويدك، وصه،ومه،ومعناه هلم فى قول جميع أهل اللغة، وقال الأخفش: "هيت لك" مفتوحة الهاء

(٧٩) انظر تفسير القرآن العظيم ٤٧٣/٢ ، والتفسير الكبير ٢١/٩ .

والتاء ،ويجوز أيضاً كسر التاء وضمها ،وقيل:"هيت لك"بالعبرانية هيا لح،أى تعال ،عرّبه القرآن،وقال الفراء :إنها لغة لأهل حوران سقطت إلى بكة فتكلموا بها.

ولما ذكرت تلك المرأة هذا الكلام،قال يوسف عليه السلام:"معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى"أى أعوذ بالله معاذا ،والضمير فى قوله تعالى: "إنه" للشأن والحديث "ربى"أى ربى وسيدى ومالكى "أحسن مثواى" حين قال لكِ:"أكرمى مثواه" فلا يليق بالعقل أن أجازيه على ذلك الإحسان بهذه الخيانة القبيحة"إنه لا يفلح الظالمون"الذين يجازون الإحسان بالإساءة، وقيل:أراد الزناة لأنهم ظالمو أنفسهم أو لأن عملهم يقتضى وضع الشىء فى غير موضعه.(٨٠)

ومجىء الضمير أولاً من غير عود ليفسر بمتأخر عنه،كما فى قوله تعالى:﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ سورة يوسف، يجعل النفس فى حالة من الغموض والإبهام فتشتاق إلى ما وراء ذلك الإبهام وتلك المواراة،فإذا جاءت الجملة"ربى أحسن مثواى"،"لايفلح الظالمون" المفسرة لذلك المبهم تمكن معنى تلك الجملة من النفس فضل تمكن،ووقع فى القلب مقبولاً مرضياً عنده ومن ثم لم يلجأ إلى هذا الأسلوب إلا فى المعانى المهمّة التى تهيؤ النفوس لتلقيها.

وقد ذكر سيدنا يوسف–عليه السلام–فى الجواب عن كلامها ثلاثة أشياء:

الأول:قوله تعالى:"معاذ الله"وكان فى إيجاز إذ التقدير:أعوذ بالله معاذاً وفيه تأكيد لاعتصامه بالله،ولجوئه إليه.

والثانى:قوله تعالى:"إنه ربى أحسن مثواى".،والثالث:قوله تعالى:" إنه لا يفلح الظالمون " جاء في تركيب متوازٍ حيث تكرّرت "إنّ" واسمها ضمير الشأن ،وخبرها الجملة"ربى أحسن مثواى" "لا يفلح الظالمون"،وكان الخبر فى الأولى جملة إسمية مثبتة بإعراب "ربى" مبتدأ ثانياً،وما بعده خبره(٨١)، والخبر فى الثانية جملة فعلية منفية،والمعنى:ثبوت الإحسان للعزيز دون نفيه عن غيره،ونفى الفلاح عن كل ظالم فى كل زمان ومكان.

---

(٨٠) مفاتيح الغيب ٩/٢٢،٢٣ .

(٨١) انظر مشكل إعراب القرآن ١/٤٢٦ .

أو إعراب لفظ"ربى"خبراً لإنّ وما بعدها فى موضع نصب حال،أى:إنه ربى الله،فقصر الربوبية عليه دون غيره(٨٢)، و"أحسن مثواى" جملة فعلية فى موضع نصب على الحال، وقد أسست معنى جديداً يضاف إلى الربوبية وهو إحسان المثوى،أو يكون المراد بالمعنى هو عزيز مصر الذى تولى تربيته وحده دون سواه،وأحسن مثواه،ويكون القصر فيه على سبيل المبالغة والادعاء، وهذا ادعى لئلا يقابل كل هذا العطف والإحسان، بالإساءة والجحود.

أو إعراب لفظ"ربى"بدل من الهاء فى "إنه"و"أحسن مثواى"خبرإن جملة فعلية(٨٣)، ومن ثم يكون التوازى فى خبر "إن" متماثلاً فى الجملتين،إذ وقع خبرها جملة فعلية غير أنه جاء الفعل فى الجملة الأولى ماضياً مثبتاً"أحسن مثواى"وجاء فى الجملة الثانية مضارعاً منفياً "لا يفلح الظالمون".

هذا التوازى فى بناء الجمل يؤكد ترابط معانيها،وتداخلها وتتابعها،والمعانى فى الكلام الثرى الحافل تتوالد وتتنامى ويلتحم بعضها ببعض حتى تكون كالجملة الواحدة توضع فى النفس وضعاً واحداً(٨٤)، تأمل هذا كله فى جواب يوسف عليه السلام–وقد تعلق بعضه ببعض،وكان ترتيبه فى غاية الحسن،وذلك لأن الانقياد لأمر الله تعالى–وتكليفه أهم الأشياء لكثرة إنعامه وألطافه فى حق العبد،فقوله تعالى:"معاذ الله"إشارة إلى أن حق الله تعالى يمنع عن هذا العمل،وأيضا حقوق الخلق واجبة الرعاية،فلما كان هذا الرجل قد أنعم فى حقى يقبح مقابلة إنعامه وإحسانه بالإساءة،وأيضا صون النفس عن الضرر واجب،وهذه اللذة لذة قليلة يتبعها خزى فى الدنيا، وعذاب شديد فى الآخرة، واللذة القليلة إذا لزمها ضرر شديد فالعقل يقتضى تركها والاحتراز عنها ، وإلاّ خاب صاحبها وخسر"إنه لا يفلح الظالمون".

ولمّا كانت هذه الجمل الواقعة فى جواب يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ سورة يوسف، قد اتصلت معانيها حتى صارت كالجملة الواحدة فلما كانت هكذا ترك العطف بينها لاتصالها الداخلى وهو أقوى من الاتصال الخارجى.

---

(٨٢) انظر تفسير النسفى ٣١١/٢ .

(٨٣) انظر إعراب القرآن ١٣٤/٢ ، ومشكل إعراب القرآن ٤٢٦/١ ، والبيان فى غريب إعراب القرآن ٣٨/٢ .

(٨٤) انظر فى ذلك دلائل الإعجاز ص(٢٢٢-٢٤٨).

الفصل الثاني

التركيب المتوازي فى إسناد الجملة الفعلية

١-جملة فعلية فعلها ماضٍ ،فيها المسند والمسند إليه مفردان:

مثل قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾} سورة العصر.

العصر: قيل إنه الدهر أو الزمان الذى تقع فيه حركات بنى آدم من خير،أو شر،وقيل المراد بالعصر:أحد طرفى النهار ،وقيل المراد به: صلاة العصر وقيل المقصود به:زمان رسول الله(ﷺ) فقوله تعالى:" والعصر" أي والعصر الذي أنت فيه ، فهو . تعالى . أقسم بزمانه في هذه الآية، وبمكانه فى قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (البلد:٢) ، وبعمره فى قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الحجر:٧٢) ، فكأنه قال:وعصرك وبلدك وعمرك،ذلك كله كالظرف له،فإذا وجب تعظيم حال الظرف ، فقس حال المظروف.[٨٥]

وقوله تعالى﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ سورة العصر ، الألف واللام فى الإنسان يحتمل أن تكون للجنس،وأن تكون للعهد فلهذا ذكر المفسرون فيه قولين:

الأول:أن المراد منه جنس الإنسان،والدليل استثناء الذين آمنوا منه .

الثانى:المراد منه شخص معين،قال ابن عباس:يريد جماعة من المشركين كالوليد بن المغيرة،والعاص بن وائل ،والأسود بن عبد المطلب.

وقال مقاتل:نزلت فى أبى لهب،وفى خبر مرفوع إنه أبو جهل.

وروى أن هؤلاء كانوا يقولون:إن محمداً لفى خسر،فأقسم تعالى أن الأمر بالضد مما يتوهمون.

والخُسر هو الخسران كما قيل الكفر فى الكفران،ومعناه النقصان وذهاب رأس المال [٨٦] ، والمقصود به هنا هلاك نفس الإنسان وعمره إلا المؤمن العامل فإنه ما هلك عمره وماله،لأنه اكتسب بهما سعادة أبدية،أو المقصود كون الإنسان الكافر فى الضلالة والكفر إلا من تخلص من ذلك بالإيمان فيصبح في ربح بعد خسر،واستعمال الخسر فى الدلالة على هلاك النفس،والعمر،أو الضلالة والكفر،فيه استعارة تصريحية شبهت فيها هذه الأشياء بالخسران ، أو الكلام مبنى على تصوير حياة الإنسان وعصره الذى يعيش فيه فى صورة سوق يربح

---

(٨٥) انظر تفسير القرآن العظيم ٥٤٧/٤ ، ومفاتيح الغيب ٦٢١/١٦- ٦٢٤ .

(٨٦) انظر لسان العرب مادة "خسر".

فيها ذلك الإنسان بالإيمان والطاعة، وويخسر فيها بالكفر،ونقصان العمر بلا طائل،وحذفت تلك الصورة،وبقيت منها كلمة"خسر"لأنها لقوة دلالتها وخصوبتها فى التركيب استطاعت أن تشير إشارة واضحة إلى باقى الصورة وتبعثها واضحة فى النفس.

والاستعارة هنا مبنية على استعارة أخرى كانت بدخول حرف الجر "فى" على كلمة"خسر"مُصوِّراً بذلك"خسر" فى صورة ظرف يحتوى الإنسان ويحيط به من كل جانب على سبيل الاستعارة التبعية،وذلك لإفادة أن الإنسان يكون كالمغمور فى الخسران بالكفر والعصيان،وضياع العمر فى الضلالة والعمى.

وتنكير كلمة"خسر" للتهويل،أى أن الإنسان لفى خسر عظيم لا يعلم كنهه إلا الله، وذلك لأن الذنب يعظم بعظم من فى حقه الذنب،أو لأنه وقع فى مقابلة النعم العظيمة، وكلا الوجهين حاصلان فى ذنب العبد فى حق ربه سبحانه.

وتأكيدا لهذا المعنى كانت"إن"و"اللام"فى قوله تعالى:﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾.

ثم استثنى من هذا الجنس المحاط بالخسران والضياع،المؤمنين،قال تعالى:"﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾،أى الذين آمنوا بقلوبهم،وعملوا الصالحات بجوارهم﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ وهو أداء الطاعات،وترك المحرمات،﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ أى على المصائب والأقدار وأذى من يؤذى ممن يأمرونه بالمعروف،وينهونه عن المنكر.

ويلاحظ أنه فى جانب الخسر ذكر الحكم،ولم يذكر السبب،وفى جانب الربح ذكر السبب وهو الإيمان والعمل الصالح،ولم يذكر الحكم لأن الخسر كما يحصل بالفعل وهو الإقدام على المعصية يحصل بالترك وهو عدم الإقدام على الطاعة،أما الربح فلا يحصل إلا بالفعل ،ولهذا ذكر سبب الربح وهو العمل ،كما أنه تعالى فى جانب الخسر أبهم ولم يفصل،وفى جانب الربح فصّل وبيّن،وهذا هو اللائق بالكرم والرحمة.

ولمّا بيّن الله –تعالى– فى أهل الاستثناء أنهم بإيمانهم وعملهم الصالح خرجوا عن أن يكونوا فى خسر وصاروا أرباب السعادة من حيث إنهم تمسكوا بما يؤديهم إلى الفوز بالثواب والنجاة من العقاب وصفهم بعد ذلك بأنهم قد صاروا لشدة محبتهم للطاعة لا يقتصرون على ما يخصهم بل يوصون غيرهم بمثل طريقتهم ليكونوا أيضا سبباً لطاعات الغير كما ينبغى أن يكون عليه أهل الدين.

فالتواصى بالحق يدخل فيه سائر الدين من علم وعمل ،والتواصى بالصبر يدخل فيه حمل النفس على مشقة التكليف فى القيام بما يجب ،وفى اجتناب ما يحرم.

وقد جاء بناء الكلام المتعلق بالاسم الموصول "الذين"متناسقاً وجاء تركيب جمله متوازياً،فجاء فى جملة فعلية فعلها ماض،هكذا:"آمنوا"وعملوا الصالحات"وتواصوا بالحق " "وتواصوا بالصبر"وكانت جملة "آمنوا" صلة لاسم الموصول "الذين" وما بعدها من جمل متتابعة معطوفة عليها،ودلالة الفعل الماضى فيها ناسب الغرض وهو مدحهم بما صدر عنهم فى الماضى،أو أنهم استثنوا لاتصافهم بهذه الصفات الواقعة منهم في الماضي ، وحذف متعلق الفعل "آمن" فى قوله تعالى:"آمنوا"ليعطى دلالة أوسع فى تقدير المتعلق كالإيمان بالله والملائكة والرسل،واليوم الآخر ،والقضاء خيره وشره...إلى آخر ما يجوز تقديره، ولم يحذف متعلق"عملوا"و"تواصوا"لأن الأعمال منها الصالح ومنها الطالح وكذلك التواصى قد يكون بالحق أو بالباطل ،أو بالصبر أو بالجزع ،فلما كانت هذه الأفعال محتملة للخير والشر جاء المتعلق ناصًا على الممدوح منها وهو عمل الصالحات،والتواصى بالحق والصبر،ثمّ كرّر التواصى ليضمن الأول الدعاء إلى الله، والثانى الثبات عليه،وتكرار الفاعل "الواو" فى الجمل كلها لأن الحديث فيها عن صفات هذا الصنف من جنس الناس ،وهو المؤمنون،وتكرر حرف "الواو" التى للنسق لتشرك الجمل فى حكم واحد وهو العطف على جملة"آمنوا"صلة الموصول.

إذن اعتمد التوازى فى بناء الجمل المتتابعة وتركيبها على مجىء المسند فيها أفعالاً ماضية وتكرار المسند إليه"الواو"وتكرار الفعل "تواصوا" وحرف العطف "الواو"وكان ذلك التوازى فيها لأن حديثها واحد،وهو ذكر صفات المؤمنين الذين استثنوا من جنس الإنسان الخاسر.

٢-جملة فعلية فعلها مضارع،فيها المسند والمسند إليه مفردان:

مثل قوله تعالى﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ سورة لقمان٢٩.

جاءت هذه الآية مفصلة لبعض ما ذكر قبلها على وجه العموم فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السموات وما في الأرض﴾ ، ففصلت ما هو فيهما على وجه الخصوص بقوله تعالى""يولج الليل فى النهار"،وأشارت إلى ما فى السماوات بقوله تعالى"وسخر الشمس والقمر".

أو أنها جاءت بعد ذكر البعث فى قوله تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (لقمان:٢٨) ، وكان من الناس من يقول :﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ سورة

الجاثية٢٤ ، والدهر هو الليالى والأيام ،قال الله تعالى هذه الليالى والأيام التى تنسبون إليها الموت والحياة هى بقدرة الله تعالى فقال﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقمر﴾.(٨٧)

والاستفهام فى قوله تعالى:"ألم ترأن الله"للتقرير ،وهو حمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه وإلجاؤه إليه،وأيضاً للتعجب من حال من لم يلتفت إلى هذه الآية الكونية الناطقة بقدرة الله عز وجل ،والخطاب . هنا–قد يكون مع النبى (ﷺ) وكأنه ترك الخطاب مع غيره ،لأن من هو غيره من الكفار لا فائدة للخطاب معهم لإصرارهم، ومن هو غيره من المؤمنين فهم مؤتمرون بأمر النبى (ﷺ) ناظرون إليه،أو يكون الخطاب مع غير معين ، والكلام هنا على سبيل الوعظ ،والواعظ يخاطب ولا يعين أحداً، فيقول لجمع عظيم:يا عبد الله اتق الله،أو يا مسكين إلى الله مصيرك،فمن نصيرك ولماذا تقصيرك وهكذا.

وقوله تعالى: "يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل"أى يأخذ منه فى النهار فيطول ذاك ويقصر هذا،وهذا يكون زمن الصيف يطول النهار إلى الغاية ثم يشرع فى النقص فيطول الليل ويقصر النهار وهذا يكون فى الشتاء.(٨٨)

وقدم –سبحانه–إيجاد الليل على إيجاد النهار فى هذه الآية وكثير من الآيات كما فى قوله تعالى: ﴿وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾(البقرة: من الآية١٦٤،وقوله تعالى:﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾(الأنعام: من الآية١) ،وقوله تعالى:﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ (الاسراء: من الآية١٢) ، وقوله تعالى:﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (الملك:٢) ، لأن الليل كالعمى والصمم والموت وغير ذلك من الأمور التى تطلب النفس سببها وعلتها.

وقوله تعالى:﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إلى أجلٍ مُسمى﴾ "قيل :إلى غاية محدودة ، وقيل إلى يوم القيامة،وكلا المعنيين صحيح،فقد روى فى الصحيحين أن رسول الله(ﷺ) قال: يا أباذر أتدرى أين تذهب هذه الشمس ؟"قلت:الله ورسوله أعلم.قال:فإنها تذهب فتسجد تحت العرش ثم تستأذن ربها فيوشك أن يقال لها ارجعى من حيث جئت"، وروى عن ابن عباس

---

(٨٧) انظر مفاتيح الغيب ١٢/٥٢٤ ، ٥٢٥.

(٨٨) انظر تفسير ابن كثير ٣/٤٥٢.

أنه قال :"الشمس بمنزلة الساقية تجرى بالنهار فى السماء فى فلكها فإذا غربت جرت بالليل فى فلكها تحت الأرض حتى تطلع من مشرقها قال وكذلك القمر"إسناده صحيح.(٨٩)

وقوله تعالى: "يولج" كان بصيغة المضارع،وقال فى الشمس والقمر "سخر" بصيغة الماضى لأن إيلاج الليل فى النهار أمر يتجدد كل فصل بل كل يوم،وتسخير الشمس والقمر أمر مستمر كما قال تعالى : ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾} سورة يس٣٩ .

وقدم الشمس على القمر مع تقدم الليل الذى فيه سلطان القمر على النهار الذى فيه سلطان الشمس لما بيّنا أن تقديم الليل كان لأن الأنفس تطلب سببه أكثر مما تطلب سبب النهار ،وههنا كذلك،لأن الشمس لما كانت أكبر وأعظم كانت أعجب ،والنفس تطلب سبب الأمر العجيب أكثر مما تطلب سبب الأمر الذى لا يكون عجيبا .

وقوله تعالى:"وأن الله بما تعملون خبير"أى أن الليل والنهار محل الأفعال وما يقع فى هذين الزمانين اللذين هما بتصرف الله لا يخفى على الله .

وتأكد هذا المعنى بإن وإسمية الجملة،وحذف مفعول "تعملون"أفاد الإحاطة والشمول لعلم الله عز وجل.

وتأمل كيف كان بناء الكلام فى جملتى"يولج الليل في النهار،ويولج النهار فى الليل"؟ ،وكيف كان تركيبهما متوازياً؟!فكل جملة منهما مكونة من أربع كلمات مكررات فيهما ،جاءت الكلمة الأولى من الأربع"يولج"فى صدر الجملتين لتدل على التداخل بين الكلمة الثانية والرابعة"الليل –النهار"فى الجملتين،وزاد من هذا التداخل والدلالة عليه حرف الجر"فى" لمعنى الظرفية فيه،حيث أشار إلى دخول الطرف الأول "الليل" فى الطرف الثانى"النهار" فى الجملة الأولى،وبالعكس فى الجملة الثانية،فضلا عن التضاد الكائن بين الليل والنهار ،هذا التضاد أبرز المخالفة بينهما،ورغم تلك المخالفة تداخلا،ونشأ كل منهما من الآخر.

إن هذا التركيب المتوازى فى هاتين الجملتين لمصور عظمة الله الباهرة فى خلقه وقدرته المطلقة،وآياته الواضحة التى تدعو إلى العجب ممن لا يراها أو يغفل عنها ، ومن ثم كانت بعد الاستفهام اللافت إليها ،والمقرِّر بها،والمتعجب ممن لا يراها.

بعد هذا الاستفهام لفظ الجلالة"الله"مسبوقاً بـ"أن "المؤكدة،والمتعلقة هى وما بعدها بالاستفهام ومدخوله "ألم تر".

---

(٨٩) انظر تفسير ابن كثير ٣/٤٥٢.

أرأيت كيف كان بناء الكلام العجيب ،وتركيبه الفريد دليلا على قدرة عجيبة...سبحان من كان هذا كلامه.

٣-جملة فعلية فعلها أمر ،فيها المسند والمسند إليه مفردان: مثل قوله تعالى:﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾} سورة الأعراف١٦١.

هذه الآية معطوفة على النعم المتقدمة،لأنه تعالى- كما بين نعمه عليهم بأن ظلل لهم من الغمام وأنزل عليهم من المن والسلوى وهو من النعم العاجلة أتبعه بنعمه عليهم فى باب الدين حيث أمرهم بما يمحو ذنوبهم وبيّن لهم الطريق المخلّص مما استوجبوه من العقوبة،فقال تعالى﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾و"إذ"هنا ظرف معمول لفعل محذوف تقديره:واذكر إذ قيل،وبنى الفعل "قيل"للمجهول للعلم بالقائل-سبحانه-،وجاء فى قوله تعالى:﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾(البقرة: من الآية٥٨) ، وقدّم الجار والمجرور "لهم"للدلالة على أنهم كانوا معنيين بالقول دون غيرهم،والأمر فى قولهم "اسكنوا " للوجوب والتكليف،واسم الإشارة فى قوله "هذه القرية" كان لتحديدها حتى لا يكون لهم أدنى عذر فى التعلل بعدم معرفتها،والمقصود بالقرية قيل :إنها بيت المقدس[٩٠]، وقيل : إنها نفس مصر ، وقيل : أريحا وهي قريبة من بيت المقدس ، والفعل "اسكنوا" مأخوذ من السكون وفيه معنى الهدوء والاستقرار والاستئناس والاستراحة،والطمأنينة،وهذا كله من تمام النعمة عليهم التى لم يرعوها حق رعايتها، والأمر فى قوله تعالى:"وكلوا منها حيث شئتم" للإباحة،و"حيث"للمكان المبهم ،أى:أبيح لكم الأكل من القرية حيث شئتم بلا قيد أو حظر للأكل أو المواضع.

والمقصود بالباب فى قوله تعالى:"وادخلوا الباب سجداً"قيل:إنه باب يدعى باب الحطة من بيت المقدس ،وقيل:جهة من جهات القرية ومدخل إليها [٩١]، واختلف فى المقصود بالسجود هنا ،فقيل إنه السجود المعروف ،وهو إلصاق الوجه بالأرض وهذا بعيد لاستحالة دخولهم الباب على هذه الهيئة،وقيل المقصود به الانحناء لأن الباب كان صغيراً وضيقاً،وهذا بعيد أيضاً لأن الباب لو كان كذلك لكانوا مضطرين إلى دخوله ركعا،وما كان يحتاج فيه إلى الأمر، وقيل المقصود به:الخضوع والتواضع وهو الأقرب ،أى ادخلوا باب بيت المقدس فى

---

(٩٠) انظر مفاتيح الغيب ١٢٤/٢ .

(٩١) نفسه ص(١٢٤).

تواضع وخضوع لما أنعم الله عليكم به من الفتح والنصر ورد بلدكم إليكم وإنقاذكم من التيه والضلال [٩٢]، أو لأنهم إذا أخذوا فى التوبة فالتائب عن الذنب لا بد أن يكون خاضعاً مستكيناً.[٩٣]

وبعد أن أمرهم بدخول الباب على وجه الخضوع أمرهم بأن يقولوا ما يدل على التوبة فقال تعالى:"وقولوا حطة"وذلك حتى يكونوا جامعين بين ندم القلب وخضوع الجوارح والاستغفار باللسان،هذا المعنى على ترتيب آية (٥٨) فى سورة البقرة وسأذكر الفرق بين الترتيب فى هذه الآية وآية سورة البقرة.

قال الزمخشرى:"حطةٌ"فِعْلة من الحط كالجلسة والركبة ، خبر مبتدأ محذوف ،أى مسألتنا حطة ،أو أمرك حطة ،والأصل النصب بمعنى حط عنا ذنوبنا حِطّةً،وإنما رفعت لتعطى معنى الثبات كقوله:

*صبر جميل فكلانا مبتلى *

والأصل صبراً على تقدير اصبر صبراً،وقرأ ابن أبى عبلة بالنصب [٩٤] ،ورتّب سبحانه وتعالى مغفرة ذنوبهم،ومحو خطيئاتهم على قولهم حطة،ودخولهم الباب سجداً فقال تعالى: "نغفر لكم خطيئاتكم"،وغفر الشىء يغفره أى ستره،وغفر الله ذنبه يغفره غفراناً ومغفرة وغفوراً بمعنى غطى عليه وعفا عنه وستره.[٩٥]

وقوله تعالى"سنزيد المحسنين"معناه :أن من كان محسناً بهذه الطاعة والتوبة فإنا نغفر له خطاياه ونزيده على غفران الذنوب إعطاء الثواب الجزيل، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ سورة يونس٢٦ ، أى نجازيهم بالإحسان إحساناً وزيادة.

ونلحظ تركيباً متوازياً،وبناء متناسقاً فى جمل مقول القول،كان هذا التوازى والتوافق والتناسق بصياغة أفعال تلك الجمل أفعال أمر:

"اسكنوا"،"كلوا"،"قولوا"،"ادخلوا"،أى أن المسند فيها مصاغ على هيئة واحدة ،هى هيئة الأمر ،وأيضاً جاء المسند إليه فيها واحداً وهو "واو الجماعة"،واختلف المتعلق بالمسند فقط،وتكررت

---

(٩٢) تفسير القرآن العظيم ١/٩٨ .

(٩٣) التفسير الكبير ٢/١٢٥ .

(٩٤) الكشاف ١/٢٧٣، ٢/١٢٥ .

(٩٥) اللسان مادة"غفر".

واو العطف لتجمع بين هذه الجمل فى حكم واحد،وهو ترتب غفران ذنوبهم على حصول ما أمروا به فى تلك الجمل.

والفرق بين هذه الآية،وآية سورة البقرة﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ سورة البقرة٥٨ أن ألفاظ آية الأعراف ،تخالف هذه الآية من وجوه:

الأول:قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ سورة البقرة٥٨، وفى آية الأعراف قال تعالى:"وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية"لأنه فى سورة البقرة كان يتحدث عن دخول القرية،وهنا يتحدث عن سكونها الذى يكون بعد الدخول .

الثانى:أنه تعالى قال فى سورة البقرة"فكلوا"وهنا"وكلوا"بالواو،لأن الدخول يقع شيئاً فشيئاً على خلاف السكون الذى فيه ثبات وقرار ،فناسب الدخول ذكر فاء التعقيب والترتيب بعده ،وناسب السكون ذكر الواو لأن الأكل حاصل معه لا عقيبه.

الثالث:وهو أنه تعالى ذكر فى سورة البقرة"رغداً"ولم يذكر هنا ،لأن الأكل عقيب دخول القرية يكون ألذ ،لأن الحاجة إلى ذلك كانت أكمل وأتم ومن ثم كان الأكل مع الحاجة إليه "رغداً"وأما الأكل حال سكون القرية والقرار بها فالظاهر أنه لا يكون فى محل الحاجة الشديدة إليه،ولهذا اكتفى بذكر إباحة الأكل دون التعرض لوصف الأكل نفسه.

الرابع:أنه تعالى قال فى سورة البقرة{ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ }، وهنا كان على العكس"وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً"للتنبيه على أنه يحسن تقديم كل واحد من هذين الفعلين على الآخر،لأن كلاهما تعظيم لله تعالى وإظهار للخضوع والخشوع له–سبحانه–ومن ثم لم يتفاوت الحال بحسب التقديم والتأخير فيهما.

الخامس:أنه تعالى قال فى سورة البقرة"خطاياكم"بصيغة جمع الكثرة،وهنا قال "خطيئاتكم"بصيغة جمع القلة ،إشارة إلى أن هذه الذنوب سواء أكانت قليلة أو كثيرة ، فهى مغفورة بفضل الله عند الإتيان بهذا الدعاء والتضرع.

السادس:أنه تعالى قال فى سورة البقرة"وسنزيد"بالواو،وهنا حذف الواو،لأن مع حذفها يكون الكلام مستأنفاً،والتقدير كأن قائلاً قال:وماذا حصل بعد الغفران ؟فقيل له"سنزيد المحسنين"فترك العطف بالواو لما بين الكلام من شبه كمال اتصال،والله أعلى وأعلم بمراده.

٤-جملة فعلية فعلها ماض أو مضارع ،فيها المسند والمسند إليه مفردان:

مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ سورة البقرة٨٧.

يصف الله تعالى بنى إسرائيل فى هذه الآية بالعتو والعناد والمخالفة ،والاستكبار على الأنبياء، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم،فذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب وهو التوراة فحرفوها وبدلوها وخالفوا أوامرها وأولوها.

وقوله تعالى:"وقفينا من بعده بالرسل"أى أتبعنا ،أو أردفنا من بعد موسى بالرسل والنبيين الذين يحكمون بشريعته ،هؤلاء الرسل هم: [يوشع، وشمويل، وشمعون ، وداود، وسليمان،وشعياء ،وأرمياء ، وعزيز،وحزقيل ،وإلياس ،واليسع،ويونس ، وزكريا، ويحيى،وغيرهم.[٩٦]

وقوله تعالى:"وآتينا عيسى بن مريم البينات" كان تفصيلاً لإجمال ذكر الرسل لأن مَنْ قبله من الرسل جاءوا بشريعة موسى فكانوا متبعين له،وليس كذلك عيسى- عليه السلام- لأن شرعه نسخ أكثر شرع موسى-عليه السلام .، والمقصود بالبينات المعجزات من إحياء الموتى،وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله وإبراء الأسقام وإخباره بالغيوب ، أو المقصود بها الإنجيل أو كل ذلك وهو الأرجح.

وقوله تعالى:"وأيدناه بروح القدس"أى ساندناه وقويناه بجبريل عليه السلام ووصف بروح القدس تشريفاً له،وبياناً لعلو مرتبته عند الله تعالى،أو سمى بذلك لأنه يحيا به الدين كما يحيا البدن بالروح ،وقيل المقصود بروح القدس الإنجيل كما قال تعالى فى وصف القرآن فى سورة الشورى : آية(٥٢)"روحاً من أمرنا"،وسمى به لأن الدين يحيا به ومصالح الدنيا تنظم لأجله ،أو المراد به:الاسم الأعظم الذى كان يحيى به -عليه السلام- الموتى.[٩٧]

وقوله تعالى "ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون" قال الزمخشرى :إنما لم يقل وفريقاً قتلتم لأنه أراد بذلك وصفهم فى المستقبل أيضاً لأنهم حاولوا قتل النبى (ﷺ) بالسم والسحر وقد قال عليه السلام فى مرض موته "ما زالت أكلة خيبر تعاودنى فهذا أوان انقطاع أبهرى "رواه البخارى.

---

(٩٦) انظر التفسير الكبير ٢/٢٤٢ ، وتفسير ابن كثير ١/١٢٢ .

(٩٧) انظر التفسير الكبير٢/٢٤٣ ، ١٢٣ .

أو يكون المراد الحال الماضية،أى "وفريقاً قتلتم" ولكن لفظاعة هذا الجرم الذى فعلوه فى حق الأنبياء ،عبر بالمضارع "وفريقاً تقتلون"لاستحضاره فى النفوس وتصويره فى القلوب.

وجاء التعبير عن تكذيب الأنبياء وقتلهم فى نسق متواز،وتركيب متوافق "ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون" فتقدم المفعول به فى الجملتين،وتكرر بلفظه "فريقاً،وتوافق المسند فيهما بأن كان فعلين ماضين إذا اعتبر"تقتلون"بمعنى "قتلتم " وكان المسند إليه فيهما واحدًا وهو ضمير المخاطبين والتقديم هنا على نية التأخير، يقول الإمام عبد القاهر " تقديم يقال إنه على نية التأخير وذلك فى كل شىء أقررته مع التقديم على حكمه الذى كان عليه وفى جنسه الذى كان فيه"[٩٨]، وفائدته هنا الاهتمام بالمفعول المقدم والعناية به وإبرازه بالتقديم،وإيقاعه فى السمع والنظر بداية،لأنه المهم فى الكلام ومحوره،وكذلك كان للتقديم هنا فائدة الدلالة على التفصيل فناسب أن يقدم ليدل عليه ،والتفصيل راجع إلى ما فى قوله: "أفكلما جاءكم رسول "من الإجمال لأنّ"جاءكم رسول" أفاد عموم الرسول وشمل هذا موسى عليه السلام، فإنهم وإن لم يكذبوه بصريح اللفظ لكنهم عاملوه معاملة المكذبين به،وقتلوا بعض الرسل مثل زكريا ويحيى وابنه.[٩٩]

وقد ذُكِرَ وجه آخر للعدول من الماضى إلى المضارع فى قوله تعالى: "وفريقاً تقتلون"وهو مراعاة الفواصل " فإن فواصل الآيات كرؤوس الأبيات فاكتمل بذلك بلاغة المعنى وحسن النظم".[١٠٠]

وقد لفت هذا التركيب المتوازى النظر إلى جريمة نكراء فعلها هؤلاء المجرمون فى حق أنبيائهم بأن كذبوا بعضهم ،وقتلوا بعضهم ،فقابلوا الخير الذى يحملونه إليهم بالشر،وجازوهم عن الإحسان إليهم إساءة ونكراناً.

٥-جملة فعلية فعلها مضارع أو شبهه،فيها المسند والمسند إليه مفردان:

مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ سورة الأنعام٩٥ .

---

(٩٨) انظر دلائل الإعجاز ص(١٠٦).

(٩٩) انظر تفسير التحرير والتنوير ٥٩٨/١ .

(١٠٠) انظر البيان فى غريب إعراب القرآن لابن الأنبارى ١٠٦/١ .

يذكر الله –تعالى– فى هذه الآية دلائل قدرته ،وكمال علمه ،وحكمته–سبحانه وتعالى–تنبيهاً على معرفته بذاته وصفاته وأفعاله،فيعبد ولا يكفر،ويشكر فلا يجحد، وجاء قوله تعالى: "إن الله فالق الحب والنوى "مؤكداً بإن وإسمية الجملة التى تفيد ثبوت هذه الصفة لله–عز وجل– وأنها قارة قديمة ،ليست طارئة حديثة،و"فالق الحب والنوى" أى يشقه فى الثرى فتنبت منه الزروع على اختلاف أصنافها من الحبوب والثمار على اختلاف ألوانها وأشكالها وطعومها من النوى ،وقوله تعالى:﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الحى﴾ أى يخرج النبات الحى من الحب والنوى الذى هو كالجماد الميت،وقيل :المراد بالحى والميت حقيقتهما،أى يخرج من النطفة بشراً حياً ثم يخرج من البشر الحى نطفة ميتة ،وكذلك يخرج من البيضة فروجة حية،ثم يخرج من الدجاجة بيضة ميتة ،وقيل:يخرج المؤمن من الكافر، كما فى حق إبراهيم عليه السلام،والكافر من المؤمن كما فى حق ولد نوح، والعاصى من المطيع وبالعكس،وغير ذلك من الأقوال التى تنتظمها الآية وتشملها.(١٠١)

وقوله تعالى:"ومخرج الميت من الحى" معطوف على قوله تعالى:"فالق الحب والنوى"، وقوله تعالى: "يخرج الحى من الميت" كالبيان والتفسير لقوله تعالى: "فالق الحب والنوى"لأن فالق الحب والنوى بالنبات والشجر النامى من جنس إخراج الحى من الميت،لأن النامى فى حكم الحيوان ،ألا ترى فى قوله تعالى﴿ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ ﴾ سورة الروم١٩، وقع فيه الإحياء والإماتة على الأرض وهى جماد.

وبنى الكلام فى هاتين الجملتين على التوافق ،والتوازى،فجاء المسند فيهما "يخرج–مخرج"فعلاً مضارعاً واسم فاعل يشبه الفعل المضارع ،مصاغين من مادة واحدة، ومتوافقين فى المعنى مع"فالق"فى جملة الصدر لأن فلق الحبة عبارة عن شقها لإخراج النبات منها،وجاء المسند إليه فى الجملتين مقدراً بـ"هو"يعود على لفظ الجلالة فى قوله تعالى:"إن الله فالق الحب والنوى"بعده مفعول به ومجرور بمن مكرران على العكس والتبديل فى الجملتين،هكذا "يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى"واستعمل الفعل المضارع مع الحى فقال تعالى:"يخرج الحى"واستعمل الإسم مع الميت فقال تعالى:"مخرج الميت"لأن أبرز صفات الحى الحركة والتجدد فجاء معه بما يدل على ذلك وهو صيغة الفعل المضارع ،وأتى مع الميت بصيغة تناسب سكونه وثباته وهى صيغة الإسمية الدالة على الثبات،أو أن الحى

---

(١٠١) انظر مفاتيح الغيب ٤٤٨/٦ ، وتفسير ابن كثير ١٥٨/٢ .

يحتاج إلى رعاية واعتناء وهذا يتطلب حركة ،ومن ثم ناسبه الفعل،يقول الإمام عبد القاهر فى بيان هذا الفرق:"أن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضى تجدده شيئا بعد شيء ،وأما الفعل فموضوعه على أنه يقتضى تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء".(١٠٢)

ويرى الإمام الزمخشرى أن الأصل فى "يخرج الحى من الميت"وروده بصيغة اسم الفاعل أسوة بالصفات المذكورة فى هذه الآية من قوله:"فالق الحب والنوى"و"فالق الإصباح وجاعل الليل"و"مخرج الميت من الحى" إلا أنه عدل عن الاسم إلى الفعل المضارع فى هذا الوصف وحده "يخرج الحى من الميت"إرادة لتصوير إخراج الحى من الميت واستحضاره فى ذهن السامع،وهذا التصوير والاستحضار إنما يتمكن فى أدائهما الفعل دون اسم الفاعل والماضى.(١٠٣)

ومع هذه المغايرة لا تجد تأثيراً فى توافق المسند فى الجملتين"يخرج-مخرج"وتماثله ،لأن الفعل المضارع يضارع الاسم ويشبهه ،ومن ثم أعرب مثله.(١٠٤)

وأيضاً كان للتضاد بين "الحى والميت"دور فى هذا التوازى وإبرازه ومن ثم تأثيره فى المعنى المراد وهو بيان قدرة الله- عز وجل -،لأن حصول المثل من المثل قد يوهم أنه كان بسبب الطبيعة والخاصية،أما حصول الضد من الضد-كما هو الحال فى الميت والحى- فيمتنع هذا التوهم،بل لابد وأن يكون بتقدير المقدر الحكيم، والمدبر العليم سبحانه.

وإذ كان الغرض من هذه الآية بيان قدرة الله-عز وجل-المطلقة،وتصوير مظاهر تلك القدرة بها التى تفوق جميع القدر ،وكان إخراج الحى من الميت أشهر فى القدرة ،وأدل على سعة السلطان من عكسه وهو إخراج الميت من الحى،:بدأ به الكلام ،وكان فى صدره مفسراً وموضحاً لفلق الحب والنوى ،ثم تلاه الثانى وهو إخراج الميت من الحى بهذا الترتيب وذلك التركيب المتوازى الذى توافقت فيه الجمل مشيرة بذلك إلى ارتباط معانيها فى بيان سلطان الله القاهر ،وقدرته المطلقة.

---

(١٠٢) دلائل الإعجاز ص(١٧٤).

(١٠٣) الكشاف ٤/٤٦٥ .

(١٠٤) انظر فى ذلك الإنصاف فى مسائل الخلاف ٢/٥٤٩ ، ٥٥٠ .

وقد يقال :إن مثل هذه الأساليب قد درست بلاغتها ،وأبرزت خصائصها تحت اسم العكس والتبديل ،أقول ردّا على هذا ،ومذكراً بما قلته فى بداية البحث ،إن تلك الألوان البلاغية قد دلت على خصائص معينة فى هذه الأساليب،وأنها كانت ناظرة إلى جزء من الكلام،كما هو الحال فى العكس والتبديل،حيث لاحظ طرفى الجملة وما فيها من تكرار بالنسبة إلى الأخرى، وأهمل بقية ما يكون فى الصياغة وتوافقها نحوياً وصرفياً وصوتياً وغير ذلك من توافق يكون فى نسق الكلام وتركيبه،وعلاقة ذلك بالمعنى.

وقوله تعالى:"ذلكم الله فأنى تؤفكون"معناه:ذلكم الله المدبر الخالق النافع الضار المحى المميت"فأنى تؤفكون"وتكذبون بآياته بعدما رأيتم أنه تعالى يخرج الحى من الميت،ومخرج الميت من الحى ،ثم شاهدتم أنه أخرج البدن الحى من النطفة الميتة مرة واحدة،فكيف تستبعدون أن يخرج البدن الحى من التراب الرميم مرة أخرى ، وتنكرون الحشر والنشر أو"فأنى تؤفكون"فى إثبات القول بعبادة الأصنام،وتقلبون الأمر عن وجهه الصواب،وتصرفونه عن حقيقته.

٦-جملة فعلية فعلها مضارع منصوب،فيها المسند والمسند إليه مفردان:

مثل قوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾ سورة التوبة ٨٣.

بعد أن بين الله -عز وجل- قبائح أعمال المنافقين فى الآية السابقة،وأنهم فرحوا بالقعود خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله،بيّن -عز وجل- فى هذه الآية أن الصلاح فى أن لا يستصحبهم الرسول فى غزواته،لأن خروجهم معه يوجب أنواعاً من الفساد .

وقوله تعالى:"فإن رجعك الله"أى إن ردَّك الله إلى المدينة،ومعنى الرجع مصير الشىء إلى المكان الذى كان فيه ، يقال :رجعته رجعاً،كقولك رددته ردّا.(١٠٥)

وقوله تعالى: "إلى طائفة منهم"الطائفة جماعة من الناس يجمعهم مذهب أو رأى يمتازون به،والمقصود هنا طائفة منافقون من أهل المدينة،وخصص هنا طائفة منهم،لأن أهل المدينة ليسوا جميعاً منافقين، بل كان بعضهم مخلصين معذورين.(١٠٦)

---

(١٠٥) انظر اللسان مادة "رجع "والتفسير الكبير ١١٩/٨ .

(١٠٦) انظر مفاتيح الغيب ١١٩/٨ ، والتحرير والتنوير ٢٨٣/١٠ .

وألمح مغزى بلاغياً فى تعبير القرآن عن المعنى هنا بهذه الطريقة من الكلام، لأنه كان يمكن أن يقال فى غير القرآن:فإن رجعك الله إلى أهل المدينة فلا تصحب طائفة منهم استأذنوك للخروج وقل لن تخرجوا معى أبداً... ،ولكن البلاغة كل البلاغة فيما كان عليه تركيب القرآن وأسلوبه،لأن تعبير القرآن، هكذا أشعرنا ،ونفث فى نفوسنا معنى آخر أفاده تعلق الجار والمجرور "إلى طائفة منهم"بالفعل رجع"،وهو كأنَّ الغاية من إرجاع الله رسوله إلى المدينة هى هؤلاء المنافقون ليمنعهم من الخروج إلى الغزو بعد إقدامهم على الاستئذان إمعاناً فى فضحهم وكشف سترهم، وفيه–أيضا–إشارة إلى أن هؤلاء المنافقين لا يقلون فى الضرر والأذى عن العدو الظاهر،بل هم أشد لإخفائهم تلك العداوة،ومن ثم ينبغى أن تنصرف الهمّةُ إلى كشفهم وفضح سترهم ،وتأديبهم،فضلاً عن الإيجاز الذى كان فى تعبير القرآن الكريم،هذا والله أعلم بمراده.

وقوله تعالى:"فاستأذنوك" أى للغزو معك،وقوله تعالى"فقل لن تخرجوا معى أبداً" أى إلى غزوة،وهذا يجرى مجرى الذم واللعن لهم،ومجرى إظهار نفاقهم وفضائحهم، وذلك لأن ترغيب المسلمين فى الجهاد أمر معلوم بالضرورة من دين محمد عليه السلام،ثم إن هؤلاء إذا منعوا من الخروج إلى الغزو بعد إقدامهم على الاستئذان،كان ذلك تصريحاً بكونهم خارجين عن الإسلام موصوفين بالمكر والخداع،لأنه عليه الصلاة والسلام إنما منعهم من الخروج حذراً من كيدهم ومكرهم وخداعهم،فصار هذا المعنى من هذا الوجه جاريا مجرى اللعن والطرد.

وجاءت"لن"فى قوله تعالى:"لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدواً" لتأبيد النفى فى المستقبل ،والجمع بين النفى بـ"لن"،وبين كلمة"أبداً"تأكيداً لمعنى"لن"لانتفاء خروجهم فى المستقبل إلى الغزو مع المسلمين،والفاء فى قوله"فإن رجعوك" و"فاستأذنوك"و"فقل"رتبت الأحداث سريعاً بلا مهلة ولا تراخ،وهذا يدل على البغض الشديد لهؤلاء المنافقين،حيث قوبلوا بهذا الرد الحاسم السريع.

ثم إنه تعالى علّل ذلك المنع بقوله تعالى"إنكم رضيتم بالقعود أول مرة"والمراد منه القعود عن غزوة تبوك [١٠٧]، أى أن الحاجة فى المرة الأولى إلى موافقتكم كانت أشد،وبعد ذلك زالت الحاجة،فلما تخلفتم عند مسيس الحاجة إلى حضوركم،فعند ذلك لا نقبلكم،ولا نلتفت إليكم.

---

(١٠٧) انظر تفسير النسفى ٢/٢٠٠ .

وقوله تعالى:"فاقعدوا مع الخالفين"قال ابن عباس: أى الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة ،وقال قتادة:أى مع النساء ،قال ابن جرير وهذا لا يستقيم لأن جمع النساء لا يكون بالياء والنون،ولو أريد النساء لقال فاقعدوا مع الخوالف أو الخالفات،ورجح قول ابن عباس –رضى الله عنهما.(١٠٨)

ومن معانى الخالف الفاسد،وقال الأصمعى:يقال:خلف عن كل خير يخلف خلوفاً إذا فسد،وَخَلفَ اللبن وخَلُفَ إذا فسد.(١٠٩)

ونلحظ فى جملتى مقول القول:"فقل لن تخرجوا معى أبداً ولن تقاتلوا معى عدواً"تركيباً متوازياً،ونسقاً متوافقاً،فالمسند إليه"واو الجماعة"مكرر فيهما ،والمسند فيهما متماثل بصياغته مضارعاً،مسبوقاً بـ"لن"النافية فى المستقبل،وتكرّر فيهما –أيضاً–المتعلق بالمسند"معى"بعده اسم نكرة منصوب "أبداً–عدوّاً"،هذا التوازى فى التركيب يؤكد المعنى ويقوى ارتباطه فى الدلالة على نفى خروج هذه الجماعة مع رسول الله (ﷺ) فى المستقبل.

٧– جملة فعلية فعلها مضارع مجزوم،فيها المسند والمسند إليه مفردان:

مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾} سورة الإخلاص.

قال عكرمة:لما قالت اليهود نحن نعبد عُزَير بن الله ،وقالت النصارى:نحن نعبد المسيح ابن الله،وقالت المجوس:نحن نعبد الشمس والقمر،وقال المشركون:نحن نعبد الأوثان،أنزل الله على رسوله(ﷺ) "قل هو الله أحد"يعنى هو الواحد الأحد الذى لا نظير له ولا وزير ولا نديد ولا شبيه ولا عديل.(١١٠)

وقوله تعالى"الله الصمد" والصّمد بالتحريك:السيد المطاع الذى لا يقضى دونه أمر،وقيل،الذى يصمد إليه فى الحوائج أى يُقْصَد،وكان من صفاته تعالى وتقدس لأنه أصمدت إليه الأمور ،فلم يقض فيها غيره،وقيل:هو المصمت الذى لا جوف له،وهذا لا يجوز على الله . عز وجل . والمصمد لغة في المصمت ، وهو الذي لا جوف له، وقيل الصمد الذى لا يطعم،ولا يخرج

---

(١٠٨) انظر مفاتيح الغيب ١٢٠/٨ ، وتفسير ابن كثير ٣٧٨/٢ .

(١٠٩) انظر اللسان مادة" خلف ".

(١١٠) انظر تفسير ابن كثير ٥٧٠/٤ .

منه شيء[١١١]، وقال الربيع بن أنس هو الذى لم يلد ولم يولد كأنه جعل ما بعده تفسيراً له وهو قوله تعالى:"لم يلد ولم يولد"وهو تفسير جيد،وقيل:هو الباقى بعد فناء خلقه.[١١٢]

واقترنت اللام بالصمد ،ولم تقترن بأحد،لأنه ليس فى الموجودات ما يسمى أحداً فى الإثبات مفرداً غير مضاف ،بخلاف النفى وما فى معناه كالشرط والاستفهام فإنه يقال:هل عندك أحد،وما جاءنى أحد إلا أكرمته،وأيضاً يستعمل فى العدد المطلق فيقال:أحد اثنان،ويقال إحدى عشرة،وفى أول الأيام يقال :يوم الأحد،وأما اسم الصمد فقد استعمله أهل اللغة فى حق المخلوقين كما تقدم،ولهذا لم يقل:الله صمد،بل قال الله الصمد فقصر هذه الصفة عليه،وبيّن أنه المستحق لأن يكون هو الصمد دون غيره، فإنه المستوجب لغايته على الكمال،والمخلوق وإن كان صمداً من بعض الوجوه فإن حقيقة الصمدية منتفية عنه،فإنه يقبل التفرق والتجزئة ويحتاج إلى غيره.[١١٣]

وقرأ الأعمش:"قل هو الله الواحد" فإن قيل لماذا؟ قيل أحد على النكرة،وقال الماوردي فيه وجهان:أحدهما:حذف لام التعريف على نية إضمارها والتقدير:قل هو الله أحد، والثانى :أن المراد هو التنكير على سبيل التعظيم [١١٤]، والضمير "هو" للشأن،ولفظ الجلالة"الله"مرتفع بالابتداء ،و"أحد"خبره والجملة تكون خبراً عن"هو" والتقدير الشأن والحديث:هو أن الله أحد ،ولا تخفى بلاغة هذا الأسلوب ،لأن الشيء إذا أضمر أولاً،ثمّ فسّر ،تمكن فى النفس فضل تمكن ،لأنه وقع فى نفس تهيأت له بالتشويق والإثارة ولما كان التفسير لذلك المبهم مضمونه عظيم،ومعناه كبير،وهو توحيد رب العباد، صيغ فى تركيب متوازٍ،ونسق متوافق هكذا:"الله أحد . الله الصمد" فتكرر المسند إليه "الله" فى الجملتين وتماثل المسند فيهما بالخبرية والإفراد،وبالإضافة إلى ما أحدثه هذا التكرار والتماثل من توازٍ فى تركيب الجملتين، وتوافق فى نسقهما زاد فى ارتباط معناهما وقواه بالإضافة إلى هذا كله ،أفاد تكرار لفظ الجلالة فى الجملة الثانية"الله الصمد"وقد تقدم الذكر فى قوله "الله أحد"وكان مقتضى الظاهر أن يقال:هو الصمد ولكن عدل إلى الاسم الظاهر لزيادة تقرير المعنى وتمكينه فى ذهن السامع وهو الألوهية وإشاعة هيمنتها فى الضمائر والقلوب،وأيضاً لو لم يتكرر لفظ الجلالة "الله"لوجب فى

---

(١١١) انظر اللسان مادة (صمد).

(١١٢) تفسير القرآن العظيم ٤/٥٧٠ .

(١١٣) انظر تفسير سورة الإخلاص لابن تيمية ص(٢٨).

(١١٤) انظر مفاتيح الغيب ١٦/٧٧٣ .

لفظي أحد وصمد أن يردا إما نكرتين،أو معرفتين ولفات ما بيناه من فرق بين ورود لفظ"أحد"منكراً،ولفظ"الصمد" معرفاً فسبحان من كان هذا كلامه.

وقوله تعالى:"لم يلد ولم يولد" أى ليس له ولد ولا والد،وقدّم قوله تعالى:"لم يلد"على قوله تعالى:"ولم يولد"مع أن فى العادة الوالد يكون مولوداً أولاً ثم يكون والداً،وذلك لأنه جاء ردّاً على من ادعوا أن له ولداً، كمشركى العرب ،واليهود والنصارى،وكان قوله تعالى:"ولم يولد"حجة ودليلاً،وذلك كأنه قيل:الدليل على امتناع الولدية اتفاقنا جميعاً على أنه ما كان ولداً لغيره،وسبحان الله وتعالى عما يقولون علوّاً كبيراً.

وقوله تعالى"ولم يكن له كفواً أحد"الكُفُؤُ،والكُفْءُ والكِفَاءُ بمعنى واحد وهو المماثل [١١٥]، أى ولم يكن أحدٌ مماثلاً له، و"أحد"اسم كان،وفى خبرها وجهان: أحدهما"كفوا"، و"له"حال من "كفوا"والتقدير:ولم يكن أحد كفواً له ، والوجه الثانى:أن يكون الخبر" له"و"كفوا"حال من" أحد"،أى:ولم يكن له أحد كفواً،فلما قدم النكرة نصبها على الحال.[١١٦]

وقدم"له كفواً"،على "أحد" لأن الكلام سيق لنفى المكافأة أى المماثلة عن ذات الله،واللفظ الدال على هذا المعنى هو الكلام المقدم وتقديم الأهم أولى فلهذا قُدّم.

ونلحظ فى ترتيب آيات السورة،وتركيب جملها أمراً عجيباً يتساءل "أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً"، أما ترتيبها فقد بدأت السورة بما يدل على أنه سبحانه واحد،وأنه كريم رحيم لأنه لا يصمد إليه حتى يكون محسنا،ثم دل بقوله تعالى:"لم يلد ولم يولد"على أنه غنى على الإطلاق ومنزه عن التغيرات التى تكون بسبب الولد أو الوالد فلا يبخل بشىء أصلا،ولا يكون وجوده لأجل جر نفع،أودفع ضر، بل كان إحساناً وتفضلاً،ثم أشار بقوله"ولم يكن له كفواً أحد" إلى نفى مالا يجوز عليه من الصفات.

وأما تركيب جملها فقد كان فى توازٍ ،وتوافق تبعاً لارتباط المعاني فى تلك الجمل،فجاء قوله تعالى:"الله أحد" على نسق متوافق-كما قلت من قبل-مع قوله تعالى: "الله الصمد" لارتباط الجملة الثانية بالأولى،من حيث كونها دافعة لتوهم قد يوجد فى الأولى ،لأن الله-تعالى- نفى عن ذاته أنواع الكثرة بقوله تعالى:"أحد" ومن ثم فقد يتوهم النقص والمغلوبية-حاشا لله-،فنفاه عز وجل بقوله:"الصمد"،إذن فالجملتان تكامل معناهما وتوازى تركيبهما،وأيضا قوله تعالى:

---

(١١٥) انظر اللسان وأساس البلاغة مادة (كفأ) .

(١١٦) انظر التبيان فى إعراب القرآن ٢٩٧/٢ .

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ توازى تركيب جمله بتكرار المسند إليه فى الجملة الأولى،والثانية، وتعلق المعنى به فى الثالثة وبتماثل المسند فيها وذلك بصياغته مضارعاً مسبوقاً بـ"لم"المكررة فى ثلاثتها لتأكيد هذا النفى واستمراره،فضلاً عن صياغة فعلى الجملة الأولى والثانية من مادة واحدة،هى مادة "ولد".

إن هذا التوازى فى التركيب ،والتوافق فى بناء الجمل يؤكد ارتباط معانيها فى نفى المعلولية والعلية بقوله تعالى:"لم يلد ولم يولد" ونفى الأضداد والأنداد بقوله تعالى:"ولم يكن له كفواً أحد" ، هذا الترابط الذى كان بين الجمل والتناسب فى معانيها هو سر الوصل بينها بالواو،وهذا ما يسميه البلاغيون التوسط بين الكمالين،أى كمال الانقطاع وكمال الاتصال ، والله أعلى وأعلم.

٨-جملة فعلية فعلها مضارع مجزوم،فيها المسند والمسند إليه جملتان تقعان موقع المفرد:

من المعلوم أن الإسناد الخبرى هو ضم كلمة أو ما يجرى مجراها إلى أخرى أو ما يجرى مجراها بحيث يفيد الحكم بأن مفهوم إحداهما ثابت لمفهوم الأخرى أو منفى عنه [١١٧] ،والمراد بقوله: "أو ما يجرى مجراها"الجملة الواقعة موقع المفرد بأن كانت مبتدأ،أو خبراً،أو فاعلاً،أو نائباً للفاعل،مثل:وأن تجتهدوا فى طلب العلم تظفروا بالنجاح ، وأن تصنعوا المعروف تحمدوا،فهاتان الجملتان وقع الطرفان فيهما جملتين حلتا محل المفرد،والتقدير فى الأولى:واجتهادكم فى طلب العلم ظفر بالنجاح،وفى الثانية:وصنعكم المعروف حمد لكم.

ومثل قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾ سورة الأنفال٣٨.

بعد أن بين الله –عز وجل– فى الآيات السابقة أن صلاة هؤلاء الكافرين عند البيت الحرام ،وتقربهم وعبادتهم إنما بالمكاء والتصدية،وشرح أحوالهم فى الطاعات المالية،أرشدهم فى هذه الآية إلى طريق الصواب والنجاة فقال تعالى:"قل للذين كفروا" قال صاحب الكشاف :أى قل لأجلهم هذا القول وهو "إن ينتهوا يغفر لهم"ولو كان بمعنى خاطبهم به لقيل:إن تنتهوا يغفر،وقال ابن مسعود هكذا [١١٨] ، والمعنى:إن ينتهوا عما هم فيه من الكفر والمشاقة والعناد،ويدخلوا فى الإسلام والطاعة والإنابة يغفر لهم ما قد سلف أى من كفرهم وذنوبهم كما

---

(١١٧) انظر شروح التلخيص ١/١٩٠ .

(١١٨) انظر مفاتيح الغيب ٧/٤٩٣ .

جاء فى الصحيح من حديث أبى وائل عن ابن مسعود–رضى الله عنه– أن رسول الله (ﷺ) قال:"من أحسن فى الإسلام لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية،ومن أساء فى الإسلام أخذ بالأول والآخر" وفى الصحيح –أيضا–أن رسول الله(ﷺ) قال:الإسلام يَجُبُّ ما قبله،والتوبة تَجُبُّ ما كان قبلها" [١١٩]، وقوله تعالى:"وإن يعودوا"أى يستمروا على ما هم فيه أو يعودوا إلى الحرب [١٢٠] ، "فقد مضت سنة الأولين" أى فقد مضت سنتنا فى الأولين أنهم إذا كذبوا واستمروا على عنادهم إنّا نعاجلهم بالعذاب والعقوبة،قال مجاهد فى قوله تعالى:"فقد مضت سنة الأولين" أى فى قريش يوم بدر وغيرها من الأمم.[١٢١]

وجملتا "إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف"،"وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين" مقول القول"قل للذين كفروا"،جاء بناؤهما متوافقاً،وتركيبهما متوازياً،فالمسند إليه فيهما هو ضمير الذين كفروا ،والمسند متماثل بصياغته مضارعاً مجزوماً بأداة الشرط "إن" المكررة فى الجملتين ، وكل جملة منهما كانت مكونة من جملتين ربط بينهما معنى الشرط والجزاء الكائن فيهما ،وترتيب إحداهما على الأخرى ومن ثم كانتا فى معنى الجملة الواحدة،إذ التقدير فى الأولى :انتهاؤهم عن الكفر والعناد مغفرة لما قد سلف من ذنوبهم ، وفى الثانية:وعودهم إلى الحرب أو الكفر ،هلاك لهم كهلاك الأولين.

هذا البناء المتوازى فى بناء الجملتين يؤكد ارتباط معانيهما وهى إثابة هؤلاء الكفرة بمغفرة ذنوبهم إن انتهوا عن الكفر ومحاربة الرسول (ﷺ) ومجازاتهم بالهلاك كما أُهْلِكَ الأولون إن يعودوا إلى الحرب أو الكفر.

وجرى هذا الكلام على عادة القرآن فى تعقيب الترهيب بالترغيب ،والوعيد بالوعد ،والعكس فأنذرهم بما أنذر ،وتوعدهم بما توعد ثم ذكرهم بأنهم متمكنون من التدارك وإصلاح ما أفسدوا ،فأمر الله نبيه (ﷺ) بأن يقول لهم ما يفتح لهم باب الإنابة.[١٢٢]

وجاء بناء الفعل "يُغْفَر"للمفعول ،للعلم بالفاعل– سبحانه وتعالى– ولا يذهب الوهم إلى أن يغفر تلك الذنوب العظيمة غيره.

---

(١١٩) انظر تفسير القرآن العظيم ٣٠٨/٢ .

(١٢٠) انظر تفسير العز بن عبد السلام ٥٣٧/١ .

(١٢١) تفسير القرآن العظيم ٣٠٨/٢ .

(١٢٢) انظر تفسير التحرير والتنوير ٣٤٤/٩ .

وجاءت الآية تفيض بالعطاء الربانى،والعفو الرحمانى،تأمل قوله تعالى: "وإن يعودوا"والعود إلى الشىء لا يكون إلا بعد مفارقته وتركه والذين كفروا فى الحقيقة لم يفارقوا الكفر أو يتركوه حتى يفهم قوله تعالى:"وإن يعودوا" أنهم تركوا الكفر ،وإن يعودوا إليه يهلكوا ،ولكن بنى الكلام على إظهار الرغبة فى أن يهتدوا ويؤمنوا ،وأن ينتهوا فوراً عن الكفر والعناد،وأيضا كان فى مقابل التصريح بغفران ذنوبهم إن انتهوا عن الكفر والعناد،كان فى مقابل ذلك التعريض بإهلاكهم إن استمروا على كفرهم،والتعريض دون التصريح،أى أن زجرهم وتخويفهم بالهلاك كان همساً وتعريضاً حتى يرقق قلوبهم ويستمليها إلى الإيمان.

أو أن المعنى كان على عكس ذلك تماماُ،بأن كان الأمر لرسول الله بأن يقول لهم قولاً حاسماً:إن ينتهوا عن الكفر والعناد يغفر لهم ما قد سلف منًّا من الله وتفضلاً عليهم ،ومن ثم جاءت "إن" التى تهمس بأن انتهاء هؤلاء عن الكفر أمر مشكوك فيه،ولكن يقال لهم هذا من باب الرحمة والفضل،وأيضاً فى حذف الفاعل من الفعل "يغفر"وبنائه للمفعول دلالة على أنهم لا يستحقون أن يذكر لفظ الجلالة معهم،وفى الكلام المسوق إليهم،وأيضاً لا يستحقون شرف الخطاب فيخاطبون بالقول: "إن تنتهوا يغفر الله لكم"وإنما صيغ الكلام للغائب فقال تعالى:"إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف"وأمام هذا الحسم والترهيب ينبغى أن يكون كفرهم بعد ذلك على سبيل العودة إليه لا الاستمرار عليه إذا كان لهم أدنى عقل ،ومن ثم قال: "وإن يعودوا"وهذا العود ينبغى أن يكون مشكوكاً فيه لوضوح الآيات الباهرات ،ووجود العبر فى إهلاك من قد سبق،وهم منهم ليسوا ببعيد فى قريش يوم بدر ،أو فى الأمم السابقة ويكون التعريض هنا أشد إيلاماً،لأنه تعريض بالوعيد بأنهم سيلقون ما لقيه الأولون،والقرينة على إرادة التعريض بالوعيد ،أن ظاهر الإخبار بمعنى سنة الأولين ،هو من الإخبار بشىء معلوم للمخبرين به ،وبهذا الاعتبار حسن تأكيده بقد التى أكدت المعنى التعريضي ،ومن ثم صحّ وقوع قوله:"فقد مضت سنة الأولين"جزاء للشرط،ولولا ذلك لما كان بين الشرط وجوابه ملازمة فى شىء ،وسبحان من كان هذا كلامه.

هذا ما منّ الله به علىّ من فهم للآية ،والله أعلى وأعلم بمراده.

وأيضاً مثل قوله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ سورة النساء ٦ .

بعد أن أمر الله–تعالى– فى هذه السورة من قبل بدفع مال اليتيم إليه بقوله تعالى:"وآتوا اليتامى أموالهم" بيَّن فى هذه الآية متى يؤتيهم أموالهم ، وذكر فيها شرطين فى دفع أموالهم إليهم ،أحدهما:بلوغ النكاح،وثانيهما:إيناس الرشد،ولا بد من ثبوتهما حتى يجوز دفع أموالهم إليهم،والمراد ببلوغ النكاح هو الاحتلام المذكور فى قوله تعالى:" وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم" وهو فى قول عامة الفقهاء عبارة عن البلوغ مبلغ الرجال الذى عنده يجرى على صاحبه القلم،ويلزمه الحدود والأحكام ، وسمى الاحتلام بلوغ النكاح لأنه إنزال الماء الدافق الذى يكون فى الجماع.(١٢٣)

وقوله تعالى: "فإن آنستم منهم رشداً" أى عرفتم ،وقيل :رأيتم ،وأصل الإيناس فى اللغة الإبصار،ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ سورة القصص٢٩ ، والرشد من رشد بمعنى اهتدى وعند الفقهاء:أن يبلغ الصبى حد التكليف،صالحاً فى دينه،مصالحاً لماله،وفى القانون:السنُّ التى إذا بلغها المرء استقلّ بتصرفاته.(١٢٤)

ثم قال تعالى:"فادفعوا إليهم أموالهم"والمراد:عند حصول الشرطين،أعنى البلوغ وإيناس الرشد يجب دفع المال إليهم لأنهم أصبحوا كاملى العقل يحسنون تدبير أمورهم،والفاء هنا وقعت فى جواب الشرط الطلبى "فادفعوا"،وتقديم الجار والمجرور "إليهم"على المفعول "أموالهم"أفاد أن الدفع يجب أن يكون لهؤلاء مباشرة،وأن تسليم الأموال يكون لهم ما داموا قد رشدوا واكتملت عقولهم.

ثم قال الله تعالى:"ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا"أى مسرفين ومبادرين كبرهم،أو لإسرافكم ومبادرتكم كبرهم تفرطون فى إنفاقها،وتقولون:ننفق كما نشتهى قبل أن يكبر اليتامى فينزعوها من أيدينا.

ثم قسّم الأمر بين أن يكون الوصى غنيًّا وبين أن يكون فقيراً فقال تعالى :"ومن كان غنيًّا فليستعفف" قال الواحدى رحمه الله:استعفّ عن الشىء ،وعفّ إذا امتنع منه وتركه،وقال صاحب الكشاف :استعَفَّ أبلغ من عفّ ، كأنه طالب زيادة العفة ، وقال تعالى " ومن كان

---

(١٢٣) انظر التفسير الكبير٥/٢٧ ، وتفسير ابن كثير ١/٤٥٣ .

(١٢٤) اللسان والمعجم الوجيز مادة "رشد".

فقيرا فليأكل بالمعروف " أى:إن كان الوصى غنياً فليستعفف ولا يأكل شيئاً من أموال اليتامى ،وإن كان فقيرا فله أن يأخذ منها بقدر الحاجة وبقدر أجر عمله وللعلماء فى هذه المسألة آراء كثيرة مبسوطة فى كتب التفاسير والفقه.(١٢٥)

ثم قال تعالى:"فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم" أى بعد بلوغهم الحلم وإيناسكم الرشد منهم،فحينئذ سلموا إليهم أموالهم،فإذا دفعتموها إليهم فأشهدوا عليهم، وهذا أمر من الله تعالى للأولياء أن يشهدوا على الأيتام إذا بلغوا الحلم وسلموا إليهم أموالهم لئلا يقع من بعضهم جحود وإنكار لما قبضه وتسلمه،ثم قال تعالى"وكفى بالله حسيبا" ، أى وكفى بالله محاسباً وشاهداً وكافياً ورقيباً على الأولياء فى حال نظرهم للأيتام وحال تسليمهم لأموالهم هل هى كاملة موفورة أو منقوصة مبخوسة مروج حسابها،مدلس أمورها؟الله أعلم بذلك كله ، ولهذا ثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله(ﷺ) قال:"ياأبا ذر إنى أراك ضعيفاً وأنى أحب لك ما أحب لنفسى لا تأمرن على اثنين ولا تلين مال اليتيم" (١٢٦) ،والباء فى قوله: "بالله"زائدة لتأكيد المعنى.

وجاءت الآية معطوفة الجمل بالواو،وقد ترتب بعضها على بعض بالفاء مصاغة فى بناء متوافق،وتركيب متواز ،كان أبرزه أسلوب الشرط الذى صيغ فيه كل الجمل وكان كل جملتين منها متوافقتين فى الصياغة،فقوله تعالى فى صدر الآية:"فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم"متوافق مع قوله تعالى فى عجز الآية: "فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم" ، فجاءت الأولى بـ"إن" الشرطية التى تجىء فى الأمور المشكوك فيها غالباً، وقد أشارت هنا إلى ما ينبغى أن يكون مع اليتامى من تدقيق عند دفع أموالهم إليهم حتى كأن إيناس الرشد الكامل فيهم أمر مشكوك فيه،وجاءت الجملة الثانية بـ"إذا" التى تجىء فى المتحقق ،لأن دفع الأموال إلى هؤلاء اليتامى أمر قد تحقق وقوعه بعد التدقيق الذى كان قبل الدفع والرد، ومن ثم فبين"إن وإذا"نسب فى المعنى وقرب ،وأيضا المسند إليه فى الجملتين مكرر وهو ضمير المخاطبين ،أى:أولياء اليتامى ،والمسند فيهما تماثل بصياغته فى الماضى"آنستم– دفعتم"،وكذلك المتعلق"منهم– إليهم" ، وأيضاً جاء جواب الشرط فيهما جملة طلبية فعلها أمر

---

(١٢٥) انظر فى ذلك التفسير الكبير ج٥ ٢٨/٥ .،وتفسير ابن كثير ٤٥٤/١ ، والنسفى ٣٠٨/١، ٣٠٩ ، وتفسير العز بن عبد السلام ٣٠٤/١ .

(١٢٦) (١) انظر التفسير ابن كثير ٤٥٤/١ .

مقترن بالفاء،والجملة التى كانت فى الأولى جواب شرط،أصبحت فى الثانية فعل شرط"فادفعوا إليهم أموالهم–فإذا دفعتم إليهم أموالهم" كل ذلك يدل على ارتباط المعانى،واتصالها وتعلق بعضها ببعض،وترتب أول منها على ثان،وهكذا،ومن ثم صيغت هذه الصياغة العجيبة والنادرة،والتى تكاد ألا تقع إلا فى كتاب الله–عز وجل– أو لا تقع إلا فيه.

وأيضاً تأمل صياغة جملتى الشرط اللتين قسّمتا أمر الوصى إلى قسمين فى تركيب متواز أيضاً،انظر"ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف" تجد المسند إليه فيهما مكرراً وهو اسم كان ،والمسند فيهما"غنياً–فقيراً"متناسباً بالتضاد الذى أبرز المعنى ووضحه ، وكانت جملة الشرط فعلية فعلها ماض ناسخ مكرر"كان" وجملة جواب الشرط طلبية،فعلها مضارع مقترن بلام الأمر المسبوقة بالفاء" فليستعفف–فليأكل"قد ربط بين فعل الشرط وجوابه أداة الشرط "من" المكررة،أرأيت كيف كانت تلك الصياغة الفريدة دالة على ترابط المعانى وتماسكها، وبناء بعضها على بعض؟!!.

الفصل الثالث

التركيب المتوازي في إسناد الأساليب المختلفة

١-التركيب المتوازى فى أسلوب الاستثناء:

الاستثناء: هو أسلوب من الكلام اشتمل على حكم مثبت أو منفى،وأخرج من هذا الحكم بواسطة إلاّ أو إحدى أخواتها.

مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ سورة سبأ٤٣.

يخبر الله تعالى عن فساد عقيدة هؤلاء الكفار ،واشتداد عنادهم فكلما قال لهم النبي(ﷺ) كلاماً من التوحيد،وتلا عليهم آيات الله الدالة عليه –سبحانه–وعلى وحدانيته،أنكروها،وقالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم ويصرفكم عما كان يعبد آباؤكم،أى أنهم بذلك يعارضون البرهان بالتقليد،وقوله تعالى:"وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى" يحتمل أن يكون المراد أن القول بالوحدانية "إفك مفترى"،ويدل عليه أن الموحد كان يقول فى حق المشرك :إنه يأفك، كما قال الله تعالى: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ سورة الصافات٨٦.وكما قالوا هم للرسول ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ سورة الأحقاف٢٢ ، أو أن يكون المراد"ما هذا إلا إفك "القرآن إفك، والإفك هو الكذب وقلب الأمر ،وصرفه عن حقيقته.

وعلى الاحتمال الأول يكون قوله تعالى:"وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين" إشارة إلى القرآن، وعلى الثانى يكون إشارة إلى ما أتى به من المعجزات.

وجاء قوله تعالى"وقال الذين كفروا للحق"مخالفاً للأسلوب السابق عليه،أى لم يقل فيه كسابقه "وقالوا للحق" ،إما تأكيداً لصفة الكفر فيهم،لأن الاسم الظاهر هنا "الذين كفروا"دل عليها صراحة،وهذا لا يكون مع ذكر ضميرهم "وقالوا"،وإما أن يكون القصد هو أن إنكار التوحيد كان مختصاً بالمشركين،وإنكار القرآن والمعجزات كان متفقاً عليه بين المشركين وأهل الكتاب ولذلك قال تعالى:"وقال الذين كفروا للحق"على وجه العموم.

وكان ردهم على آيات الله الواضحات،التى تتلى عليهم دالة على وجوده ووحدانيته –سبحانه– بأن قالوا:ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم،وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى،وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين" فى أسلوب توازى

تركيبه،بأن بنى على القصر بالنفى والاستثناء فى جمله الثلاثة الواقعة مقولة لـ"قال"المكررة مع ثلاثتها،هكذا "قالوا :ما هذا إلا رجل "وقالوا :ما هذا إلا إفك مفترى" "وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين"،والمسند إليه "الكفار"مكرر فيها،بواو الجماعة فى الأولى والثانية، وبالإسم الصريح فى الثالثة"الذين كفروا"والمسند"قال"–كما قلت.مكرر أيضا،وأيضاً تكرر المقصور باسم الإشارة "هذا"،وتماثل المقصور عليه بالتنكير"رجل–إفك–سحر"،لأنهم أرادوا التحقير،والوصف بما بعده فقالوا:"رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم"،و"إفك مفترى"، و"سحر مبين".

وطريق النفى والاستثناء لا يأتى إلاّ فى المعنى الذى يحتاج إلى تقرير وتوكيد،وإلى هذا أشار الإمام عبد القاهر بقوله:"وأما الخبر بالنفى والإثبات نحو ما هذا إلا كذا،وإن هو إلا كذا فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه فإذا قلت ما هو إلا مصيب،وما هو إلا مخطىء قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلته،وإذا رأيت شخصاً من بعيد فقلت ما هو إلا زيد لم تقله إلا وصاحبك يتوهم أنه ليس بزيد،وأنه إنسان آخر ويجدُّ فى الإنكار أن يكون كذلك"(١٢٧)

ولجأ هؤلاء الكفار إلى هذا الأسلوب فى الكلام ليواجهوا به سلطان الآيات البينات،والحجج الدامغات على وحدانية الله–عز وجل– وصدق نبيه (ﷺ) فواجهوا كل ذلك بالإنكار الشديد،والتحقير البغيض،فأتوا بأقوى طرق القصر ليؤكدوا به ما ادعوه كذباُ وبهتاناً،مشيرين إلى كل ادعاء وافتراء باسم الإشارة"هذا" الذى هو للقريب إمعاناً منهم فى التحقير والتهوين. والتوازى الذى كان فى بناء الجمل وتركيبها يدل على ترابطها فى الدلالة على المعانى التى أشرت إليها منذ قليل.

٢– التركيب المتوازى فى أسلوب الاستفهام:

الاستفهام:هو أسلوب من أساليب الكلام،يطلب فيه حصول صورة الشىء فى الذهن،أى حصول صورة المراد فهمه فى النفس، وإقامة هيئته فى العقل،مثل قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾} سورة العلق.

---

(١٢٧) انظر دلائل الإعجاز ص(١٢٧) .

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال:كان رسول الله (ﷺ) يصلى فجاءه أبو جهل فنهاه،فأنزل الله" ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴿١٠﴾ [١٢٨] ، والخطاب فى قوله تعالى:"أرأيت" للرسول(ﷺ) والهمزة للاستفهام وفيه معنى التعجب ،ووجه التعجب فيه أنه عليه السلام قال:اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين ،عمرو بن هشام ،أو عمر بن الخطاب ،فكأنه –تعالى– قال له :كنت تظن أنه–أى أبو جهل–يعز به الإسلام وهو"ينهى عبداً إذا صلى"، وأنه كان يلقب بأبى الحكم،فكأنه تعالى يقول :كيف يليق به هذا اللقب وهو ينهى العبد عن خدمة ربه،أيوصف بالحكمة من يمنع عن طاعة الرحمن ويسجد للأوثان!!

وفضل الدلالة على التعجب بالاستفهام على الدلالة عليه بأسلوب صريح،أن الاستفهام بجانب دلالته على التعجب هنا ،نجد فيه أشياء أخرى بعد ذلك،ففيه إثارة هذا السؤال الذى يلفت الوجدان إلى التفكير والغوص فى الموقف والبحث فيه عن وجه العجب، ثم نجد سلسلة من التداعيات والرؤى تثار فى القلب والخاطر حول هذا الأمر، فضلا عن بقاء هذا السؤال مثاراً إلى أن يشاء الله.

ويرى ابن خالويه أن الاستفهام هنا للتقرير [١٢٩] ، ويراه النسفى –رحمه الله–للتعجب والتقرير وتأكيد أن هذا الأمر وقع من أبى جهل [١٣٠] ، وجاء مفعول به "أرأيت"اسما موصولاً لبيان ما كان من أمر أبى جهل وتخصصه بذلك الحدث، وأنه أصبح معروفاً به ،فـ(إذا كان قد عرف رجل بقصة أو أمر جرى له فتخصص بتلك القصة وبذلك الأمر عند السامع ثم أريد القصد إليه ذكر "الذى ") [١٣١]، وجاء الفعل "ينهى"بصيغة المضارع مع أن نهى أبى جهل وقع ،ومضى ،وذلك لاستحضار تلك الحالة العجيبة التى ينهى فيها عن الصلاة ،وفعل الطاعات،لتظل ماثلة،أمام العيون يتدبرها أولوا الألباب فى كل زمان وعصر ،أو أن أبا جهل يتكرر فى كل زمان ومكان وعليه أن يعتبر من أبى جهل الأول .

وقال تعالى:"ينهى عبداً"ولم يقل "ينهاك ،فوضع الاسم الظاهر "عبداً"نكرة ،موضع الضمير ،ليدل على كونه عبداً لله كاملا فى العبودية ، ومن ثم ينهى أبو جهل أشد الخلق عبودية

---

(١٢٨) انظر لباب النقول ص(٤٨٦)،والتفسير الكبير ٥١٨/١٦ ، وتفسير ابن كثير ٥٢٨/٤ .

(١٢٩) انظر إعراب ثلاثين سورة –ص(١٣٨).

(١٣٠) انظر تفسير النسفى ٥٤١/٤ .

(١٣١) انظر دلائل الإعجاز ص(٢٠٠).

عن العبودية وذلك عين الجهل والحمق،أو المقصود بالعبد العموم، فيكون هذا أبلغ فى الذم لأن المعنى أن أبا جهل هذا دأبه وعادته أنه ينهى كل من يرى.

أو أن هذا تخويف لكل من نهى عن الصلاة،فقد روى عن على(ﷺ)أنه رأى فى المصلى أقواماً يصلون قبل صلاة العيد، فقال:ما رأيت رسول الله (ﷺ) يفعل ذلك،فقيل له:ألا تناههم؟ فقال:أخشى أن أدخل تحت قوله تعالى:"أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلّى" فلم يصرح بالنهى عن الصلاة.

وأخذ أبو حنيفة منه هذا الأدب الجميل حين قال له أبو يوسف:أيقول المصلى حين يرفع رأسه من الركوع:اللهم اغفر لى؟قال:يقول ربنا لك الحمد ويسجد ولم يصرح بالنهى.(١٣٢)

وفى التنكير–أيضاً– تفخيم لشأن النبي(ﷺ) أى أنه مع التنكير معرّفٌ وقد تكرر هذا فى كتاب الله كثيراً،مثل قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ سورة الإسراء ١ ، وفى سورة الكهف قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ﴾ آية ١ ، وفى سورة الجن قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾آية ١٩ ، وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ سورة العلق،أى يامحمد أرأيت إن كان هذا الكافر على الهدى واشتغل بأمر نفسه ،أما كان يليق به ذلك إذ هو رجل عاقل ذو ثروة ، فلو ا اختار الدين والهدى والأمر بالتقوى ،أما كان ذلك خيراً له من الكفر بالله والنهى عن خدمته وطاعته.

أو أن الخطاب فيه للكافر،وأن الله–عز وجل– لمّا قال للنبي"أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلّى" التفت بعد ذلك إلى الكافر،فقال :أرأيت يا كافر إن كانت صلاته هدى ودعاؤه إلى الله أمراً بالتقوى أتنهاه مع ذلك.(١٣٣)

وفيه إشارة إلى أن النبي(ﷺ) كان لا يوجد إلا فى أحد أمرين إما فى إصلاح نفسه،وذلك بفعل الصلاة،أو فى إصلاح غيره وذلك بالأمر والتقوى ، أو أنه(ﷺ) كان فى صلاته على الهدى وآمراً بالتقوى ،لأن كل من رآه وهو فى الصلاة كان يرق قلبه،فيميل إلى الإيمان ،فكان فعل الصلاة دعوة بلسان الفعل،وهو أقوى من الدعوة بلسان القول،وفى قوله

---

(١٣٢) انظر التفسير الكبير ٥١٩/١٦ .

(١٣٣) السابق ٥٢٠/١٦ .

تعالى:"أرأيت إن كان على الهدى" استعارة تمثيلية،شبه فيها حال المهتدى فى ثباته على الحق بهيئة الكائن على جواد متمكن منه،ومستعل عليه ، واستعيرت الهيئة الثانية للأولى،واكتفى منها بكلمة "على"لأنها لقوة دلالتها وخصوبتها فى التركيب استطاعت أن تشير إشارة واضحة إلى باقى الصورة،وتبعثها واضحة فى النفس والخيال.(١٣٤)

وقوله تعالى:"أرأيت إن كذب وتولى" أى أرأيت يا محمد إن كذب هذا الكافر بتلك الدلائل الواضحة وتولى عن خدمة خالقه،ألم يعلم بعقله أن الله يرى منه هذه الأعمال القبيحة ويعلمها أفلا يزجره ذلك عن هذه الأعمال القبيحة أو أن الخطاب للكافر، والمعنى:إن كان يا كافر محمد كاذباً أو متولياً ألا يعلم بأن الله يرى حتى ينتهى من نفسه ولا يحتاج إلى نهيك.

وقوله تعالى:"ألم يعلم بأن الله يرى"معناه أنه تعالى عالم بجميع المعلومات حكيم لا يهمل،عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء فلا بد وأن يوصل جزاء كل أحد إليه بتمامه فيكون هذا تخويفاً شديداً للعصاة وترغيباً عظيماً لأهل الطاعة.

ونلحظ أن الآيات جاء نسق جملها متوافقاً،وتركيبها متوازياً،بتكرار الاستفهام فيها هكذا﴿أَرَأَيْتَ الَّذى ينْهى(٩)عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾أَلَمْ يَعْلَمْ بَأَنَّ اللَّهَ يَرَى(١٤) سورة العلق، وتكرار المسند"رأى"والمسند إليه "تاء المخاطب"،وتماثلت الجملتان الثانية والثالثة، بأن تكررت فيهما "إن"الشرطية،بعدها فعل ماض معطوف عليه آخر ماضٍ أيضاً"كان على الهدى–أو أمر بالتقوى–كذب وتولى"،وبين الاستفهام والشرط بإن من التناسب ما لا يخفى،يقول الإمام عبد القاهر:"وبينهما من المناسبة ما لا يخفى،ألا ترى أنك إذا قلت:أضربت زيداً؟ كنت طالباً ما لم يستقر عندك،كما أنك إذا قلت:إن تضرب زيداً أضرب،كان كلاماً معقوداً على الشك من حيث إن كل واحد من الشرط والجزاء علة لصاحبه،وليس قصدك أن تثبت الضرب على الإطلاق" (١٣٥) ، فكان الشرط بذلك داعماً للاستفهام ليكون أظهر فى التعجب من هذه الحال ،كما اعتمد التوازى بين هاتين الجملتين–أيضاً– على ما بين معنيهما من التوافق،إذ يلزم من الأولى "كان على الهدى أو أمر بالتقوى"الإقبال إلى الله وطاعته،ومن الثانية:"كذّب وتولى"الإدبار عن الله وعصيانه ، وبين هذين المعنيين طباق أبرز المعنى ووضحه.

---

(١٣٤) انظر المطول ص(٣٩٤-٣٩٥)والتصوير البيانى (٢٣٦).

(١٣٥) المقتصد فى شرح الإيضاح ٢/١١٢٠ .

وتكرر قوله:"أرأيت"-كما قلت- فى الجمل الثلاثة للتوكيد،وزيادة فى التماثل،كما أن هذه الجمل تماثلت فى الموقع الإعرابى،فوقعت جملاً استئنافية لا محل لها من الإعراب.

أما الجملة الرابعة"ألم يعلم بأن الله يرى" فهى وإن تماثلت مع الجمل السابقة بتكرار همزة الاستفهام،إلاّ أن الاستفهام يكون فيها للتوبيخ والإنكار إن كان الكلام موجهاً إلى أبى جهل،أى كان حقه أن يعلم ذلك العقاب بنفسه لوضوح الدلائل والبراهين من حوله،وأيضاً تباينت تلك الجملة بأن كانت فى محل نصب مفعولاً به ثانياً للفعل"أرأيت" فى الجملة التى قبلها"أرأيت إن كذب وتولى"،وبقية الجمل التى تماثلت معها،كانت جملا استئنافية لا محل لها من الإعراب-كما قلت من قبل-،وفى هذا إشارة إلى أن الأفعال التى تضمنتها هذه الجمل"رأيت-ينهى-صلى-كان على الهدى-أمر بالتقوى-كذب-تولى-يعلم"متعلقة بالإنسان وحياته وكانت من تحصيله بمحض إرادته،أما مضمون الجملة الرابعة فمختلف،إذ إنه صفة ثابتة فيه-عزّوجلَّ-وهى صفة الرؤية والعلم،ومن ثمّ كان بناء هذا المعنى على الثبات والدوام فجاءت الجملة إسمية مؤكدة بأن"أن الله يرى"وجاء خبر"أن"جملة فعلية فعلها مضارع لإفادة أن الرؤية تقع حادثة ومتجددة وهذا يناسب أفعال العباد الحادثة والمتجددة،وحذف مفعول"يرى" ليعم كل موجود،فلا تكون الرؤية مقتصرة على أبى جهل وحده.

وما كان هذا التركيب المتوازى فى تلك الجمل إلاّ إشارة لترابط معانيها ووحدة موضوعها وهو الحديث عن أبى جهل،وبيان أفعاله الداعية للعجب لأنها أفعال لا تتفق ورغبة النبى- عليه السلام- بأنْ يُعَزَّ به الإسلام.

وترك العطف بين هذه الجمل ،إما لأنه لا توجد جهة جامعة بينها وذلك على رأى من قال إن الخطاب فى الأولى"أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلّى"كان للنبي(ﷺ) وفى الثانية"أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى"كان للكافر،فالجملتان إنشائيتان، ولكنهما فصلتا لفقد الجامع بينهما،وكذلك فى الثانية والثالثة"أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى،و"أرأيت إن كذّب وتولى"باعتبار أن المخاطب فى الثانية هو الكافر،وفى الثالثة هو النبي(ﷺ) ، وإمّا ترك العطف لاتصال معانى تلك الجمل، ووجود ترابط بينها غائر فى ضمير الكلام،بأن كانت الثانية مؤكدة للأولى،لأنه يلزم من كون العبد يصلى،كونه على الهدى،وأنه بذلك يأمر بالتقوى بلسان حاله،ومن ثم فهو مقبل على الله-عز وجل-،ثم جاءت الجملة الثالثة مؤكدة للثانية،لأنه يلزم من كون العبد مقبلاً على الله-تعالى-ألا يكون مدبراً عنه،فقال تعالى:"أرأيت إن كذب وتولى" فكانت الثالثة تأكيداً

لهذا المعنى،وأيضاً جاءت الرابعة مؤكدة للثالثة،لأنه يلزم من كون العبد مكذباً،ومدبراً عن الله–تعالى–ألا يكون عالماً بأن الله–سبحانه–يراه،ويطلع عليه،وهذا مبلغ علمى،والله أعلم بمراده.

٣–التركيب المتوازى فى أسلوب القسم:

القسم ضرب من الخبر ،يذكر ليؤكد به الخبر ،ولما كان فى الأصل جملة من الجمل التى هى أخبار جاءت على ما جاءت عليه أخواتها فى كونها مرة جملة من فعل وفاعل ،وأخرى من مبتدأ وخبر إلا أنها لا تستقل بأنفسها حتى تتبع بما يقسم عليه،والأفعال الموضوعة للقسم:أقسمت وحلفت وأليت وقد أجرى مجراها:علم الله،ويعلم الله،والأصل فى القسم ذكر فعل القسم ولكنه يحذف كثيراً لدليل الحال عليه.

ولما كانت أفعال القسم غير متعدية بنفسها عديت بالحروف التى هى:واوالقسم وتاؤه والباء واللام،وهذه الحروف خافضة للمقسم به ولا بد للقسم من جواب ، وتعد الباء أصل حروف القسم،والواو مبدلة عن الباء عند حذف الفعل والتاء مبدلة عن الواو.(١٣٦)

وجاء التركيب المتوازى فى أسلوب القسم فى القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾} سورة الشمس.

فى هذه الآيات يشير الله–تعالى– إلى نعمه المبسوطة فى الكون،فذكر فى القسم أنواع مخلوقاته المتضمنة منافع عظيمة حتى يتأمل المكلف فيها ويشكر ربه عليها،لأن الذى يقسم الله تعالى به يحصل له وقع فى القلب،فتكون الدواعى إلى تأمله أقوى.(١٣٧)

---

(١٣٦) انظر ارتشاف الضرب ٤٨٥/٢ ،والمقتصد فى شرح الإيضاح ص(٨٢٦)،ومغنى اللبيب ١٠٥/١ ،وشرح المفصل ٣٢/٨ .

(١٣٧) انظر مفاتيح الغيب ٤٣٢/١٦ .

والأشياء التى أقسم الله–تعالى–بها سبعة،هى الشمس،والقمر ،والنهار ،والليل والسماء ،والأرض،والنفس،إلى قوله تعالى:"قد أفلح من زكاها"وهو جواب القسم،قال الزجاج:المعنى لقد أفلح، لكن حذفت اللام لأن الكلام طال فصار طوله عوضا عنها.(١٣٨)

واختلف المفسرون فى المراد بـ"ضحاها"فى قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ سورة الشمس١ ، فمنهم من قال:المراد ضوء الشمس ،ومنهم من قال:النهار كله،ومنهم من قال:حرالشمس،وكلها أقوال متقاربة بحسب اللغة،لأن الضحو ارتفاع النهار، والضحى فويق ذلك،والضحاء–ممدوداً–امتداد النهار وقرب انتصافه.(١٣٩)

ولما كانت الشمس من أجل النعم وأعظمها ،لكثرة ما تعلق بها من مصالح للعباد،بدأ بها القسم فى السورة.

وقوله تعالى:"والقمر إذا تلاها"أى يتبع الشمس ويتلوها،وذلك إنما يكون فى النصف الأول من الشهر إذا غربت الشمس،فيبقى القمر طالعاً عند غروب الشمس ومن ثم يتبعها فى الإضاءة،أو أن الشمس إذا غربت تبعها القمر ليلة الهلال فى الغروب ،أو المقصود أن القمر يأخذ الضوء من الشمس ، وقال الزجاج:تلاها حين استدار وكمل،فكأنه يتلو الشمس فى الضياء والنور يعنى إذا كمل ضوؤه فصار كالقائم مقام الشمس فى الإنارة،وذلك فى الليالى البيض،أو أنه يتلوها فى كبر الجرم بحسب الحس ،وفى ارتباط مصالح هذا العالم بحركته.(١٤٠)

وقوله تعالى:"والنهار إذا جلاها"أى جلاّها، وأظهرها ، وكشفها، والضمير فى "جلاّها" يعود إمّا إلى الشمس وذلك لأن النهار عبارة عن نور الشمس،وكلما كان النهار أجلى ظهوراً كانت الشمس أجلى ظهوراً،لأن قوة الأثر وكماله تدل على قوة المؤثر،وإما يعود الضمير إلى الظلمة . وهو قول الجمهور–أو إلى الدنيا،أو إلى الأرض،وإن لم يجر لها ذكر، يقولون: أصبحت باردة يريدون الغداة،وأرسلت يريدون السماء،وهكذا،وإن كان الرأى الأول أقوى لأن الضمير في "يغشاها"فى قوله تعالى:"والليل إذا يغشاها" يعود إلى الشمس بلا خلاف ، فكذا فى "جلاها"يجب أن يكون للشمس حتى يكون الضمير فى الفواصل من أول السورة إلى ههنا

---

(١٣٨) تفسير النسفى ٥٢٨/٤ .

(١٣٩) انظر اللسان مادة"ضحى" .

(١٤٠) انظر تفسير النسفى ٥٢٨/٤ ، ومفاتيح الغيب ٤٣٥/١٦ .

للشمس، وأيضاً أنه لما جعل الليل يغشى الشمس ويزيل ضوءها حسن أن يقال النهار يجليها،على ضد ما ذكر فى الليل.

وقوله تعالى"والسماء وما بناها"يحتمل أن تكون "ما "هنا مصدرية بمعنى والسماء وبنائها،ويحتمل أن تكون بمعنى"منْ"يعنى والسماء وبانيها،ومعنى البناء الرفع وهكذا قوله تعالى:"والأرض وما طحاها" قال الجوهرى:طحوته مثل دحوته أى بسطته.(١٤١) ، وقوله تعالى: "ونفس وما سواها" أى خلقها سوية مستقيمة على الفطرة السليمة،وقوله تعالى: "فألهمها فجورها وتقواها" أى فأرشدها إلى فجورها وتقواها أى بين ذلك لها وهداها إلى ما قدر لها،قال ابن عباس:بين لها الخير والشر وكذا قال مجاهد وقتادة والضحاك والثورى،وقال سعيد بن جبير:ألهمها الخير والشر،وقال ابن زيد:جعل فيها فجورها وتقواها،وقوله تعالى:"قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها"يحتمل أن يكون المعنى قد أفلح من زكى نفسه أى بطاعة الله–كما قال قتادة– وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل،وقد خاب من دساها أى أخملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى حتى ركب المعاصى وترك طاعة الله–عز وجل– وقد يحتمل أن يكون المعنى قد أفلح من زكى الله نفسه،وقد خاب من دسّى الله نفسه كما قال العوفى وعلى بن أبى طلحة عن ابن عباس.(١٤٢) ، وقوله:"دسّاها"أصله دسَسَها من التدسيس وهو إخفاء الشىء فى الشىء فأبدلت إحدى السينين ياء.(١٤٣)

وجاءت الآيات فى تركيب متوازٍ،ونسق متوافق،إشارة إلى ارتباط المعانى فيها،وتعلق بعضها ببعض،فالشمس وهى أعظم المحسوسات ومن أجلّ النعم ذكرها الله تعالى مع أوصافها الأربعة الدالة على عظمتها فى تركيب متوازٍ فقال تعالى : ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ سورة الشمس،فتكررت الواو بعدها اسم مجرور وكانت الجملة الأولى "والشمس وضحاها"بمثابة الأم،وما بعدها من جمل متعلق بها، ولهذا تباين عجزها عن بقية الجمل ،التى تكررت فيها"إذا"بعدها فعل ،وتكررت–أيضاً–"ها"ضمير الشمس فى الجمل الأربعة التى تساوت بذلك فى البناء النحوى.

---

(١٤١) انظر تفسير ابن كثير ٥١٥/٤ ،واللسان مادة "طحا".

(١٤٢) نفسه ص(٥١٥).

(١٤٣) انظر اللسان مادة"دسا".

هذا التساوى هو الذى شكل نسقاً متوازياً دلّ على ارتباط معانى تلك الجمل وتعلق بعضها ببعض، فضلاً عما أحدثه هذا التركيب من قيمة صوتية أكسبت الكلام جمالاً وخلابة.

تأمل الارتباط الذى كان بين الجمل "والشمس وضحاها"أى وضوئها أو ونهارها"والقمر إذا تلاها"أى تبعها أو تلا النهار،"والنهار إذا جلاها"أى كشف الشمس وأظهرها،والليل إذا يغشاها"أى يغشى الشمس حين تغيب فتظلم الآفاق،هذا الترابط الذى كان بين معانى تلك الجمل تضافرت عناصر التوازى التى كانت فى تركيب ألفاظها وبنائها لإظهار هذا التعلق بين المعانى وإطلاق جو من الموسيقى التصويرية لمشاهد الكون.

وتكررت"إذا"فى الجمل الثلاثة لتدل على الزمان،وتكون فى الغالب ظرفاً للمستقبل،وكثر مجيء الماضى بعدها مراداً به الاستقبال-كما هو الحال هنا- ولم تتضمن معنى الشرط فى هذا النسق بل تجردت للظرفية المحضة فأفادت هنا الحال، وذلك لأنها جاءت بعد القسم.(١٤٤) ، وفيها-أيضاً-الدلالة على الدوام،فالقمر حاله التتابع للشمس،أو تلو النهار،والنهار -أيضاً-حاله إظهار الشمس وكشفها،والليل حاله غشاء الشمس حين تغيب فتظلم الآفاق،وجاء الفعلان"تلاها-جلاها"ماضيين والفعل "يغشاها" مضارعاً،لأن القمر إذا تلا الشمس فى الضياء والنور، والنهار إذا جلّى الشمس وأظهرها للرائين لا يؤثر ذلك فى ظهور الشمس بل يكشفها ويدل عليها،وهذا بخلاف قدوم الليل الذى يسترها،فلا تبقى ظاهرة للعيان،فضلاً عن أن تلك المغايرة جاءت فى هذه الجملة"والليل إذا يغشاها " لتشعر المتلقى أن هذا النسق قد انتهى ،ولتهيئه للنسق الذى يليه وهو قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾} سورة الشمس ، إنه نسق آخر توازى تركيب الجمل فيه بتكرار "الواو"-أيضاً-والاسم المجرور بعدها،بعده "واو"مكررة- أيضا-بعدها فعل ماض ومفعول به الضمير"ها"تضمن هذا النسق معانى أخرى متصلة بالسابقة،لأنه سبحانه لما وصف الشمس بالصفات الأربعة الدالة على عظمتها أتبعه-هنا- ببيان ما يدل على حدوثها،وحدوث جميع الأجرام السماوية،فنبه بهذه الآيات على تلك الدلالة.

وقال -عز وجل-"وما بناها"ولم يقل ومن بناها ،لأن المراد الإشارة إلى الوصفية،كأنه قيل والسماء وذلك الشيء العظيم القادر الذى بناها ، والأرض وذلك الشيء العظيم القادر الذي

---

(١٤٤) انظر ارتشاف الضرب ٢٣٧/٢ ،ومغنى اللبيب ٩٢/١ ، ٩٣.

طحاها،ونفس والحكيم الباهر الحكمة الذى سوّاها،أو أن"ما" قد تستعمل فى موضع"من" كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾} سورة النساء ، والأول هو الأوجه.(١٤٥)

وأرى تناسباً بين الأسماء الثلاثة "السماء –الأرض–نفس" كان بالتضاد بين"السماء–و–الأرض" وبالتماثل بينهما وبين"نفس"لأن النفس إذا بعدت عن الذنوب والمعاصى ارتفعت كالسماء وسمت،وإلا كانت كالأرض فى التسفل والانحطاط.

وتنكير كلمة"نفس"يدل على الكثرة ،نحو قوله تعالى :﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾} سورة التكوير ، وذلك لأن الحيوان أنواع لا يحصى عددها إلا الله،ولكل نوع نفس مخصوصة متميزة عن سائرها .

والواو الواقعة فى صدر الآيات للقسم بالاتفاق ،وكذا الثانية عند البعض وعند الخليل الثانية للعطف لأن إدخال القسم قبل تمام الأول لا يجوز ألا ترى أنك لو جعلت موضعها "الفاء"أو "ثم"لكان المعنى على حاله وهما حرفا عطف فكذا "الواو".(١٤٦) ومن قال إنها للقسم احتج بأنها لو كانت للعطف لكان عطفاً على عاملين لأن قوله:"والليل"مثلا مجرور بواو القسم،وإذا يغشى منصوب بالفعل المقدر الذى هو "أقسم"،فلو جعلت"الواو" فى "النهار إذا جلاّها" للعطف لكان النهار معطوفاً على الليل جراً،و"إذا جلاّها"معطوفا على"إذا يغشاها"نصباً وصار كقولك :"إن فى الدار زيداً،أو فى الحجرة عمراً"وأجيب بأن "واو القسم"تنزل منزلة(الباء والفعل)حتى لم يجز إبراز الفعل معها فصارت كأنها العاملة نصباً وجرّاً،وصارت كعامل واحد له عملان،وكل عامل له عملان يجوز أن يعطف على معموليه بعاطف واحد بالاتفاق نحو"ضرب زيد عمراً وبكرٌ خالداً، فترفع بالواو وتنصب لقيامها مقام "ضرب" الذى هو عاملهما،فكذا هنا.(١٤٧)

وأيضاً كانت المغايرة فى الجملة الثالثة"ونفس وما سواها"بتنكير كلمة "نفس" ومخالفتها "السماء"و"الأرض"كانت تلك المغايرة مشعرة للمتلقى بانتهاء هذا النسق، ومهيئة له لتلقى النسق الذى يليه،وهو نسق جواب القسم ، قال تعالى ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ

---

(١٤٥) انظر مفاتيح الغيب ٤٣٧/١٦ .

(١٤٦) تفسير النسفى ٥٢٧/٤.

(١٤٧) تفسير النسفى ٥٢٨/٣ .

مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾.،واعتمد التوازى فى هذا النسق على تكرار"قد"وتماثل "أفلح"و"خاب"بالفعلية فى زمن الماضى،وتكرار"من"و"ها"،وقوله تعالى: " قد أفلح مَنْ زكاها"يحتمل وجهين:

الأول:أن يكون جواباً للقسم،ومن النحاة من أجاز أن يكون جواب القسم بـ"قد" وحدها،ومنهم من قدر "لام"محذوفة وأسماها المزنى"لام"الإضمار والتقدير :لقد أفلح.(١٤٨)

والثانى:أن يكون على سبيل الاستطراد وليس من جواب القسم فى شىء ، قال النسفى:(وقيل الجواب محذوف وهو الأظهر ،تقدره:ليُدَمْدمنَّ الله عليهم أى على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله(ﷺ)كما دمدم على ثمود لأنهم كذبوا صالحاً،وأما "قد أفلح"فكلام تابع لقوله تعالى:"فألهمها فجورها وتقواها"على سبيل الاستطراد وليس من جواب القسم فى شىء).(١٤٩)

٤-التركيب المتوازى فى أسلوب النداء:

النِّداء والنُّداء:الصوت مثل الدُّعاء والرُّغاء ،وقد ناداه ونادى به وناداه مناداةً ونداءً،أى صاح به وأندى الرجل إذا حسن صوته،والنَّدى بُعْدُ الصوت ، والإنداء :بُعْدُ مدى الصوت.(١٥٠)

ومعناه فى الإصطلاح:طلب الإقبال بأحد الحروف النائبة مناب "أدعو"، وحروفه "يا"و"أيا"و"هيا"وغيرها،ولا ينادى حقيقة إلا المميز لأنه الذى تتأتى إجابته،وأما غيره مثل "يا جبال"،و"ياأرض"فاستعارة مكنية حيث شبهه بالمميز فى النفس.(١٥١) ، كما نودى الغائبون، والصاحبة التى أخبروا عن إيغالها فى الرحلة،وأيضاً نوديت أحوال النفس وعواطفها من حب وبغض وحسرة ولذة إلى آخر ما عبر به الإنسان عن مكنونة، ووراء كل ذلك أغراض وأسرار ،تحتاج إلى بحث مستقل يتناولها بالشرح والتحليل.

وجاء أسلوب النداء فى تركيب متوازٍ،ونسق متوافق ،مثل قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ۖ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ سورة مريم.

---

(١٤٨) انظر تفسير العز بن عبد السلام ٤٥٧/٣ ،والحروف لأبى الحسين المزنى ص(٨٠).

(١٤٩) تفسير النسفي ٥٢٨/٤

(١٥٠) انظر اللسان مادة(ندى).

(١٥١) انظر حاشية الخضرى على شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك ٧١/٢ .

يقول الله – عز وجل – مخبراً عن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ذلك وأن لا تكلم أحداً من البشر فإنها ستكفى أمرها ويقام بحجتها فسلمت لأمر الله- تعالى-واستسلمت لقضائه فأخذت ولدها ،وأتت به قومها تحمله فلما رأوها كذلك أعظموا أمرها واستنكروه جدّاً،وقالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريّاً أى أمراً بديعاً،أو عظيماً،ويحتمل أن يكون المراد شيئاً عجيباً خارجاً عن العادة من غير تعيير وذم،ويحتمل أن يكون شيئاً عظيماً منكراً فيكون ذلك على وجه الذم وهذا أظهر لقولهم بعده"يا أخت هارون ما كان أبوك أمرأ سوء وما كانت أمك بغيا"لأن هذا القول ظاهره التوبيخ.(١٥٢)

وهارون قيل:إنه رجل صالح من بنى إسرائيل ينسب إليه كل من عرف بالصلاح والمراد أنك كنت فى الزهد كهارون فكيف صرت هكذا،وقيل:إنه أخو موسى-عليه السلام-،وقيل:كان لها أخ يسمى هارون من صلحاء بنى إسرائيل فعيرت به وهذا هو الأقرب،لأنها أضيفت إليه ووصف أبويها بالصلاح وحينئذ يصير التوبيخ أشد لأن من كان حال أبويه وأخيه هذه الحالة يكون صدور الذنب عنه أفحش.

وجاء قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ سورة مريم ، فى بناء توازى تركيب جمله،وتوافق نسقها،وكان ذلك فى جزئين من الكلام،الجزء الأول: أداة النداء والمنادى "يامريم"-"يا أخت هارون"فوقعت"يا" فى صدر كل جملة منهما،وجاء المنادى متغايراً لفظاً متحداً فى المعنى،لأن مريم هى أخت هارون،والتغاير هذا كان لعلة فى المعنى إذ المراد التوبيخ والذم ، ومن ثم نادوها بقولهم : " يا أخت هارون " ليكون التوبيخ أشد،والتأنيب أبلغ ،لأنها أخت لهذا الرجل الصالح الذى لا يعرف الفاحشة ولا المنكر،فكيف يكون منها ما كان؟!

والجزء الثانى: جواب النداء وكان متغايراً من جهة وقوعه فى الجملة الأولى قسما"لقد جئت شيئا فريا"إذ اللام فى" لقد" موطئة لقسم مقدر،ووقع فى الجملة الثانية منفياً"ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا"وكان متماثلاً من جهة أخرى إذ إن جواب النداء "القسم والجملة المنفية"فى الجملتين لامحل له من الإعراب.

وجاء جواب النداء وما عطف عليه فى الجملة الثانية فى تركيب متوازٍ أيضا قال تعالى: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ ، فتكررت "ما"النافية فى الجملتين "ما كان

---

(١٥٢) انظر مفاتيح الغيب ٤٤٠/١٠ ،وتفسير ابن كثير ١١٨/٣ ، وتفسير النسفى ٥٥/٣ .

أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا"،وأيضاً تكررت"كان" فيهما وتناسب اسم كان"أبوك-أمك"مضافاً إلى كاف الخطاب فيهما ،واستعمل التوازى الداخلى للدلالة على المساواة بين الأب والأم فى صلاحهما ولترابط الجملتين فى المعنى،فضلا عن ذلك جاء حرف العطف "الواو"لإشراك الجملتين فى حكم واحد إذ إن جملة"ما كان أبوك امرأ سوء"لا محل لها من الإعراب جواب النداء،وجملة"ما كانت أمك بغيا"لا محل لها-أيضا- من الإعراب معطوفة عليها،فاشتركت الجملتان فى الموقع الإعرابى،كما اشتركتا فى الدلالة على الصلاح،وعلى هذه الدلالة بنيت جملة النداء "يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا".

تأمل كيف كانت المعانى فى الآيتين مترابطة،قد تعلق بعضها ببعض،فبدأ هؤلاء قولهم للسيدة مريم بندائها نداء البعيد فجاؤوا بـ"يا" الموضوعة للبعيد مع أنها ماثلة بين أيديهم ،للدلالة على أنهابفعلها هذا -حسب ظنهم-أصبحت بعيدة عنهم طبعاً وخلقاً ورحماً...إلخ ، ثم ذكروها باسمها لينسبوا إليها صراحة التهمة التى جاءت فى جواب النداء،"لقد جئت شيئا فريا" والتى من أجلها كان التوبيخ،ثم نادوها بعد ذلك بما يزيد فى هذا التوبيخ فقالوا "يا أخت هارون" مذكرين لها بأنها أخت هارون النبى أو ذلك الرجل الصالح،ومن كان كذلك ينبغى أن يكون صالحاً،أو يكون المراد رجلاً طالحاً قد شتموها به،ثم شددوا فى التوبيخ والتأنيب،فقالوا "ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيّا"لأن من كان حال أبويه وأخيه هذه الحالة يكون صدور الذنب عنه أفحش.

أرأيت كيف كان الترابط بين معانى تلك الجمل ،وكيف كان تركيبها متوازياً تبعاً لارتباط معانيها!!

ومثل-أيضاً-قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ سورة البقرة٣٥.

بعد أن أمر الله-سبحانه وتعالى-الملائكة بالسجود لآدم-عليه السلام-فسجدوا إلا إبليس-لعنه الله-يخبر الله -عز وجل- فى هذه الآية عما أكرم به آدم-أيضا- من أنه أباحه الجنة يسكن منها حيث يشاء،ويأكل منها ما يشاء أكلاً رغداً واسعاً وافياً طيباً-فقال تعالى:"اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما"وقد اختلف فى الجنة التى أمر آدم بأن يسكنها مع زوجته أهى فى السماء أم فى الأرض؟ فالأكثرون من المفسرين على أنها في السماء ، والباقون على أنها في الأرض ، وسياق الآية يقتضى أن حواء خلقت قبل دخول

آدم الجنة، ويقال :إن خلق حواء كان بعد دخول الجنة،وسميت حواء لأنها خلقت من شيء حيٍّ.(١٥٣)

وقال صاحب الكشاف:السكنى من السكون لأنها نوع من اللبث والاستقرار والضمير"أنت"تأكيد للمستكن فى "اسكن" ليصح العطف عليه و"رغدَا" وصف للمصدر أى أكلا رغداً واسعاً رافعاً،و"حيث"للمكان المبهم أى:أى مكان من الجنة شئتما ، فالمراد من الآية إطلاق الأكل من الجنة على وجه التوسعة البالغة حيث لم يحظر عليهما بعض الأكل،ولا بعض المواضع حتى لا يبقى لهما عذر فى التناول من شجرة واحدة من بين أشجارها الكثيرة.(١٥٤)

وجاء قوله تعالى"وكلا منها رغداً"ههنا بالواو،وفى سورة الأعراف آية(١٩)"فكلا من حيث شئتما" بالفاء،أى عطف قوله "كلا"على قوله تعالى"اسكن"فى سورة البقرة بالواو،وفى سورة الأعراف بالفاء،لأن كل فعل عطف عليه شيء،وكان الفعل بمنزلة الشرط،وذلك الشيء بمنزلة الجزاء عطف الثانى على الأول بالفاء دون الواو،ومن ثم لمّا كان وجود الأكل منها متعلقا بدخولها،والدخول موصل إلى الأكل،والأكل متعلق وجوده بوجود الدخول ووقوعه، جاء الفعل "كلا"معطوفا بالفاء على قوله"اسكن" مع ملاحظة أن الفعل "اسكن"يقال لمن دخل مكاناً وأريد منه أن يلزم المكان الذى دخله ولا يبرحه،ويقال –أيضاً–لمن لم يدخل اسكن هذا المكان أى ادخله واسكن فيه كما هو الشأن فى سورة البقرة حيث ورد الأمر بعد أن كان آدم فى الجنة،وكان المراد منه اللبث والاستقرار،ومن ثم فالأكل لا يتعلق به ولهذا ورد الأمر بالأكل "وكلا" معطوفاً بالواو على الأمر بالسكن"اسكن"،وفى سورة الأعراف–كما قلت–هذا الأمر إنما ورد قبل أن يدخل الجنة فكان المراد منه دخول الجنة ومن ثم فالأكل يتعلق به ولهذا ورد بالفاء،والله أعلم

وقوله تعالى:"ولا تقربا هذه الشجرة" كان اختباراً من الله–تعالى–وامتحاناً لآدم عليه السلام،واختلف المفسرون فى المراد بالشجرة،فقيل:إنها الكرم، وقيل: الحنطة،

---

(١٥٣) انظر البداية والنهايةلابن كثير ٨٠/١ وما بعدها.ط دار الغد العربى،وتفسيره ٧٨/١ ، ٧٩ .

(١٥٤) انظر مفاتيح الغيب ٨/٢.

وقيل:السنبلة،وقيل:البرُّ، وقيل:النّخلة، وقيل :التينة والصواب أنها مبهمة لا يعلمها إلا الله– عز وجل.(١٥٥)

وقوله تعالى:"فتكونا من الظالمين" أى أنكما إن أكلتما فقد ظلمتما أنفسكما لأن الأكل من الشجرة ظلم للغير ،وقد يكون ظالماً بأن يظلم نفسه وبأن يظلم غيره وظلم النفس أعم وأعظم.

وجاء بناء الجمل فى الآية متوازياً،تضمنت كل جملة من هذه الجمل أسلوباً، فجاءت الجملة الأولى"وقلنا يا آدم"نداءً ،والثانية والثالثة المعطوفة عليها،"اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما"جاءا أمراً والرابعة والخامسة المترتبة عليها"ولا تقربا هذه الشجرة فتكون من الظالمين"جاءا نهياً باعتبار أن حذف النون فى"فتكونا" للجزم عطفاً على "ولا تقربا" وكأنه قال:ولا تقربا هذه الشجرة فلا تكونا من الظالمين.(١٥٦)،وتماثلت هذه الأساليب الثلاثة"النداء ،والأمر ،والنهى"فى كونها أساليب طلبية،ارتبطت فيها المعانى،وترتب بعضها على بعض،فالجملة الأولى "ياآدم"نداء لآدم قبل تخويله سكن الجنة،وفيه تنويه بذكر اسم آدم بين الملأ الأعلى لأن نداءه يسترعى إسماع أهل الملأ الأعلى فيتطلعون لما سيخاطب به(١٥٧) ، فقيل له:"اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما"وكان الأمر فى" اسكن"مستعملاً فى الامتنان بالتمكين والتخويل،وليس أمراً له بأن يسعى بنفسه لسكن الجنة إذ لا قدرة له على ذلك السعى فلا يكلف به،والسكنى من السكون لأنها نوع من اللبث والاستقرار.(١٥٨) والأمر فى "كلا منها"لإباحة الأكل من ثمار الجنة و"حيث شئتما" أى أطلق لهما الأكل من الجنة على وجه التوسعة البالغة،فيأكلان ما يشاءان فى أى موضع من الجنة أرادا حتى لا يبقى لهما عذر فى التناول من شجرة واحدة من بين أشجارها، وبعد هذا النعيم بقى أن يؤديا شكره بأن يطيعا الله فيما ينهاهما عنه،فقيل لهما:"ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين" أى ولا تأكلا من الشجرة لأن قربانها إنما لقصد الأكل منها، والنهى عن القربان أبلغ من النهى عن الأكل لأن القرب من الشىء ينشىء داعية وميلا إليه ، وفى حذف نون"تكونا"وجهان:

---

(١٥٥) انظر مفاتيح الغيب ١٠/٢ ،وتفسير ابن كثير ٧٩/١ .

(١٥٦) انظر البيان فى إعراب القرآن ٧٥/١ .

(١٥٧) التحرير والتنوير ٤٢٨/١ .

(١٥٨) الكشاف ٢٧٣/١ .

أحدهما:أن يكون حذفها للنصب بتقدير"أن"لأنه جواب النهى،وتكون"أن"مع الفعل بتقدير مصدر"والفاء عاطفة له على المصدر الذى دل عليه قوله"ولا تقربا"، والتقدير:لا يكن منكما قربان وكون من الظالمين.

والثانى:أن يكون حذفها–كما قلت سابقاً–للجزم عطفاً على "ولا تقربا" والتقدير:فلا تكونا من الظالمين.

وعلى حذف النون من"تكونا"للنصب يكون الكلام جملة واحدة لأن المعطوف يكون من جملة المعطوف عليه،أى أن قوله "ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين"جملة واحدة مكونة من نهى وجوابه.

والأساليب الثلاثة"النداء والأمر والنهى"وقعت مقولة لقوله تعالى:"وقلنا" فيها المخاطب متكرر وهو آدم –عليه السلام–وزوجته حواء ،وبعد هذا فلا يخفى دور التركيب المتوازى الذى كان فى بناء الأساليب المختلفة نوعاً"نداء– أمر–نهى"والمتماثلة دلالة"أساليب طلب"فى أداء المراد وترتيب المعانى بعضها على بعض ،فالنداء "يا آدم"استعمل تكريماً لآدم–عليه السلام– ،والأمر "اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما"استعمل فى الامتنان بالتمكين والتخويل وأطلق لهما الأكل من الجنة على وجه التوسعة،والنهى "ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين"كان تعبداً لله – عز وجل– فى امتثال أوامره،والكف عما نهى،واختباراً للمُنعم عليه بهذه النعم،هذا والله أعلى وأعلم.

الخاتمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات،والصلاة والسلام على أشرف الكائنات سيدنا محمد،ختم الله تعالى- به الرسالات ، وعلى آله وصحبه الثقات .

أما بعد...

فقد عايشت القرآن الكريم معايشة كريمة تُعَدُّ أفضَل ما فى العمر قرْباً من الله- تعالى- وتأملاً فى أسرار ودلالات كتابه العزيز،ومحاولة لاستجلاء سر من أسرار تركيبه وبناء ألفاظه،فكان هذا البحث هكذا وكانت نتائجه كالآتى:

*أسرار القرآن الكريم ودلالاته لا تنقضى، وما استنبطه العلماء من علوم وأصول من هذا الكتاب العظيم أضاءوا به طريق السالكين ذوى العقول الراشدة،ليس إلا قطرةً من بَحرٍ بَعُدَ غَوْرُه وقَعْرُه،لهذا يقول سهل بن عبد الله:

"لو أعطى العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم تبلغ نهاية ما أودعه الله فى آية من كتابه،لأنه كلام الله ،وكلامه صفته،وكما أنه ليس لله نهاية فكذلك لا نهاية لفهم كلامه،وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله عليه".

*يعد التركيب المتوازى طريقه عجيبة من طرق صياغة القرآن الكريم،وبناء جمله ونظم ألفاظه،وهو-كما قلت من قبل- عبارة عن جملتين أو أكثر فى السياق متوافقتين أو متوافقة فى البناء والتركيب والترتيب،إشارة إلى ترابط المعانى وتعلق بعضها ببعض.

*قيمة هذا اللون من الكلام،أو تلك الطريقة فى بناء الألفاظ لا تظهر جلية إلا من خلال السياق الموجودة فيه، وأن يعمد بها إلى وجه آخر من التركيب والترتيب حتى تظهر مزية تلك الهيئة التى جاءت فيها الألفاظ،وهذا ما أشار إليه الإمام عبد القاهر بقوله:"والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب،فلو أنك عمدت إلى بيت شعر،أو فصل نثر فعدّدت كلماته عدًّا كيف جاء واتفق وأبطلت نضده،ونظامه الذى عليه بنى ،وفيه أفرغ المعنى وأجرى،وغيرت ترتيبه الذى بخصوصيته أفاد ما أفاد،وبنسقه المخصوص أبان المراد... أخرجته من كمال البيان إلى محال الهذيان".[١٥٩]

---

(١٥٩) أسرار البلاغة ص(٣).

ونمط الكلام ونسقه يشترك فى تكوينه،وتصويره أشياء كثيرة،كالوزن الصرفى،والتركيب النحوى،والإيقاع الصوتى ،والدلالة المعجمية للألفاظ المتجاورة، والتماثل بينها،أو التشابه،أو التضاد،وغير ذلك من عناصر تنهض عليها صورة الكلام وهيئته.

*قد يشتمل التركيب المتوازى ،على ألوان من البلاغة كالجمع أو التفريق،أو التقسيم،أو الإيضاح بعد الإبهام،أو ذكر الخاص بعد العام،أو عكسه،وغيرها من ألوان فيظن أنه أحد هذه الألوان،ويندرج تحت اسمه،وهو فى الحقيقة ليس كذلك،لأن تلك الألوان ناظرة فى مجملها إلى المعنى بوجه من الوجوه،وهذا ناظر إلى توافق الجمل المتتابعة فى الصياغة والتركيب والترتيب فيلاحظ فيه كل ما يتصل بالمعنى واللفظ من نحو وصرف وبلاغة ودلالة معجمية وصوتية للألفظ.....إلى آخر ما يكون فى هيئة الكلام وصورته ومضمونه.

*لمّا كانت الجملة العربية تقوم على ركنين أساسيين هما :المسند إليه، والمسند، كان لهذين الركنين التأثير الأظهر ،والأوضح فى طبيعة التركيب المتوازي فى الجملة التى تنقسم- بحسب نوع هذين الركنين وترتيبهما- إلى جملة إسمية وجملة فعلية.

*كثر هذا النمط من الأسلوب فى القرآن الكريم فى الجمل مقولة القول،وهذا واضح فى أمثلة البحث.

*حاول البحث إظهار بلاغة هذا النوع من التركيب،وأثره فى المعنى .

*أظهر البحث ترابط الفنون البلاغية فيما بينها ترابطاً وثيقاً،خدمة للمعنى وإبرازاً للمراد.

*أشار البحث إلى دقة القرآن الكريم فى دلالته على المعانى المتصلة،والمترابطة فى نسق متوافق،وتركيب متوازٍ.

وختاماً أرجو الله أن أكون قد وفقت فى إلقاء الضوء على نسق من أنساق القرآن الكريم على طريقة أهل البلاغة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

أهم المصادر والمراجع

١-إعجاز القرآن-الباقلانى- المكتبة التجارية-القاهرة.
٢- أسرار البلاغة- عبد القاهر الجرجانى- تحقيق هـ.ريتر-مكتبة المتنبى-ط-ثانية.١٩٧٩م.
٣- الأسس الجمالية فى النقد العربى- د/عز الدين إسماعيل- دار الشئون الثقافية.بغداد.
٤- الإكسير فى علم التفسير-الطوفى- تحقيق د/عبد القادر حسين-المطبعة النموذجية.
٥-أساس البلاغة- الزمخشرى. ت محمد باسل عيون السود- دار الكتب العلمية-بيروت-ط-أولى ١٩٩٨م.
٦- الإيضاح-الخطيب القزوينى- تحقيق د/محمد عبد المنعم خفاجى- المكتبة الأزهرية للتراث-ط ثالثة ١٩٩٣م.
٧- الإتقان فى علوم القرآن- جلال الدين السيوطى.دار مصر للطباعة.
٨-ارتشاف الضرب من لسان العرب - أبو حيان الأندلسى- تحقيق د/مصطفى أحمد النحاس -مطبعة المدنى - القاهرة ط- أولى ١٩٨٩م.
٩- الأشباه والنظائر فى النحو- جلال الدين السيوطى- تحقيق طه عبد الرؤوف سعد-مكتبة الكليات الأزهرية-١٩٧٥م.
١٠- الأعلام- خير الدين الزركلى- مطبعة كوستا تسوماس وشركاه-ط-ثانية ١٩٥٦م.
١١- إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات فى جميع القرآن-لأبى البقاء عبد الله العكبرى- تحقيق إبراهيم عطوة عوض- ط مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر-ط أولى-١٩٦١م.
١٢- البرهان فى علوم القرآن- الزركشى- تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم-مكتبة التراث بالقاهرة.
١٣- البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى- د/محمد أبو موسى-مكتبة وهبة-ط ثانية ١٩٨٨م.
١٤- البيان فى غريب إعراب القرآن- ابن الأنبارى- تحقيق د/طه عبد الحميد طه- مراجعة مصطفى السقا- دار الكتاب العربى-القاهرة ١٩٦٩م.
١٥- البيان والتبيين- الجاحظ- تحقيق وشرح عبد السلام هارون-القاهرة.

١٦- التبيان فى البيان- الطيبى- تحقيق د/توفيق الفيل- ط ذات السلاسل-الكويت ط أولى ١٩٨٦م.
١٧- التبيان فى إعراب القرآن- العكبرى- المكتبة التوفيقية بالأزهر- ط أولى ١٩٧٩م.
١٨- التصوير البيانى- د/محمد أبو موسى- مكتبة وهبة.ط ثانية- ١٩٨٠م.
١٩- تفسير القرآن العظيم- ابن كثير- ط عيسى البابى الحلبى.
٢٠- التفسير الكبير- فخر الدين الرازى- دار الغد العربى بالقاهرة – ط- أولى ١٩٩١م.
٢١- التحبير فى علم التفسير- جلال الدين السيوطى. تحقيق د/زهير عثمان-وزارة الأوقاف- قطر.
٢٢- تفسير التحرير والتنوير- الطاهر بن عاشور- الدار التونسية للنشر تونس.
٢٣- تفسير القرآن- عز الدين عبد العزيز عبد السلام- ت د/عبد الله بن إبراهيم.دار ابن حزم-بيروت-لبنان ط أولى ١٩٩٦م.
٢٤- تفسير الكشاف- الزمخشرى- مطبعة الاستقامة.
٢٥- تفسير النسفى- عبد الله بن أحمد النسفى- تحقيق مروان محمد الشقار- دار النفائس ط أولى ١٩٩٦م.
٢٦- جواهر الألفاظ- قدامة بن جعفر-ت محمد محيى الدين عبد الحميد- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان ط أولى ١٩٨٥م.
٢٧- الخصائص- ابن جنى – ت محمد على النجار – الهيئة المصرية العامة للكتاب ط رابعة ١٩٩٠م.
٢٨- خصائص التراكيب- د/محمد أبو موسى- مكتبة وهبة – ط- ثانية ١٩٩٦م.
٢٩- دلائل الإعجاز- الإمام عبد القاهر الجرجانى- تحقيق الشيخ محمود شاكر – مكتبة الخانجى.
٣٠- زهر الآداب – الحصرى- مطبعة الرحمانية ١٩٥٣م.
٣١- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك- ت وشرح محمد محيى الدين عبد الحميد- ط- ثانية.
٣٢- شذور الذهب فى معرفة كلام العرب- ابن هشام الأنصارى- شرح محمد محيى الدين عبد الحميد، طبعة خاصة بالمعاهد الأزهرية .
٣٣- شرح المفصل- ابن يعيش النحوى- مكتبة المتنبى- القاهرة.

٣٤- الصناعتين- أبو هلال العسكرى- ت-د/مفيد قميحة- دار الكتب العلمية بيروت- لبنان ١٩٨٤م.
٣٥- الصبغ البديعى- د/أحمد موسى- دار الكتاب العربى بالقاهرة.
٣٦- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز- يحى العلوى-دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان ١٩٨٢م.
٣٧- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن- زكريا الأنصارى- ت محمد على الصابونى- مكتبة الصابونى- ط أولى ١٩٨٥م.
٣٨- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان- ابن القيم الجوزية-دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان.
٣٩- القاموس المحيط- الفيروز أبادى الشيرازى- دار الجيل- بيروت.
٤٠- الكليات(معجم فى المصطلحات والفروق اللغوية)- لأبى البقاء الكفوى-وضع فهارسه د/عدنان درويش ومحمد المصرى- مؤسسة الرسالة- بيروت- لبنان ط ثانية ١٩٩٨م.
٤١- لسان العرب- ابن منظور- دار المعارف المصرية.
٤٢- لباب النقول فى أسباب النزول- جلال الدين السيوطى- ت- د/حمزة النشرتى- المكتبة القيمة بالقاهرة.
٤٣- المثل السائر- ابن الأثير- قدم له وشرحه د/أحمد الحوفى ، ود/بدوى طبانة- دار نهضة مصر-ط-ثانية.
٤٤- معجم البلدان- ياقوت الحموى- دار صادر- بيروت ١٩٨٤م.
٤٥- مفتاح العلوم- السكاكى- تحقيق زرزور- دار الكتب العلمية- بيروت ١٩٨٧م.
٤٦- المعانى فى ضوء أساليب القرآن- د/عبد الفتاح لاشين- دار المعارف القاهرة- ط ثالثة ١٩٧٨م.
٤٧- معانى القرآن- أبو زكريا يحى بن زياد الفراء- عالم الكتب-بيروت ط – ثانية ١٩٨٠م
٤٨- معترك الأقران فى إعجاز القرآن- جلال الدين السيوطى- ت- د/أحمد شمس الدين- دار الكتب العلمية- بيروت- ط- أولى ١٩٨٨م.
٤٩- مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب- ابن هشام الأنصارى المصرى

ت- محمد محى الدين عبد الحميد-مطبعة المدنى-القاهرة.

٥٠- المقتصد فى شرح الإيضاح- عبد القاهر الجرجانى- ت - د/كاظم بحر المرجان- العراق ١٩٨٢م.

٥١-المعجم الوجيز- مجمع اللغة العربية- طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم ١٩٩٢م.

٥٢- نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور- البقاعى-مكتبة ابن تيمية- القاهرة ط أولى ١٩٧٣م.

٥٣- نهاية الأرب فى فنون الأدب- النويرى- المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة- القاهرة.

٥٤- همع الهوامع فى شرح جمع الجوامع- جلال الدين الأسيوطى ت/عبد العال سالم مكرم- دار البحوث العلمية-الكويت ١٩٧٧م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة.....	٤٤٧
التمهيد	٤٥٠
معنى التركيب والتوازى فى اللغة.....	٤٥٠
معنى التركيب والتوازى عند النقاد والبلاغيين.....	٤٥٠
الفصل الأول : التركيب المتوازى فى إسناد الجملة الإسمية	٤٥٦
١-جملة إسمية فيها المسند إليه والمسند مفردان	٤٥٦
٢ - جملة إسمية فيها المسند إليه مفرد والمسند جملة إسمية.....	٤٦٣
٣ - جملة إسمية فيها المسند إليه مفرد والمسند جملة فعلية.....	٤٦٨
٤-جملة إسمية فيها المسند إليه مفرد والمسند شبه جملة.....	٤٧١
٥-جملة إسمية فيها المسند إليه مفرد والمسند جملة إسمية أو جملة فعلية،أو مفرد	٤٧٥
٦-جملة إسمية منسوخة فيها المسند إليه مفرد، والمسند مفرد أو شبه جملة،أو جملة	٤٨٠
الفصل الثانى : التركيب المتوازى فى إسناد الجملة الفعلية.	٤٩٣
١-جملة فعلية فعلها ماضٍ،فيها المسند والمسند إليه مفردان.....	٤٩٣
٢-جملة فعلية فعلها مضارع،فيها المسند والمسند إليه مفردان..	٤٩٥
٣-جملة فعلية فعلها أمر ،فيها المسند والمسند إليه مفردان.....	٤٩٨
٤-جملة فعلية فعلها ماض أو مضارع،فيها المسند والمسند إليه مفردان.	٥٠١
٥-جملة فعلية فعلها مضارع أو شبهه،فيها المسند والمسند إليه مفردان.	٥٠٢
٦-جملة فعلية فعلها مضارع منصوب ،فيها المسند والمسند إليه مفردان.	٥٠٥
٧-جملة فعلية فعلها مضارع مجزوم،فيها المسند والمسند إليه مفردان.	٥٠٧
٨-جملة فعلية فعلها مضارع مجزوم فيها المسند والمسند إليه جملتان.	٥١٠

الفصل الثالث : التركيب المتوازى فى إسناد الأساليب المختلفة.	٥١٦
١-التركيب المتوازى فى أسلوب الاستثناء.....	٥١٦
٢-التركيب المتوازى فى أسلوب الاستفهام.....	٥١٧
٣-التركيب المتوازى فى أسلوب القسم.....	٥٢٢
٤-التركيب المتوازى فى أسلوب النداء.....	٥٢٧
الخاتمة.....	٥٣٣
أهم المصادر والمراجع.....	٥٣٥
فهرس الموضوعات.....	٥٣٩